مجلة
بينات
العدد ٩

رابطة علماء المسلمين

مجلة فصلية تصدر عن رابطة علماء المسلمين | محرم ١٤٤٤هـ (أغسطس ٢٠٢٢)

ندوة: المسلمون وتحولات النظام الدولي

الأحلاف المعاصرة

صناعة الربانية

حرب المصطلحات

موقف المسلم من الصراع بين فئتين كافرتين

حوار مع فضيلة الدكتور محمد العبدة

مجلة
بيِّنات
العدد ٩

محرم ١٤٤٤هـ أغسطس ٢٠٢٢م

فصليَّة تصدر عن
رابطة علماء المسلمين

رابطة علماء المسلمين

رئيس التحرير:
د. عبدالعزيز كامل

مدير التحرير:
د عادل الشيخاني

أعضاء هيئة التحرير:
أ.د. حكمت الحريري
د. عادل الحمد
د. هشام برغش
د. عماد خيتي

السكرتارية:
أ. محمد حسين
أ. أحمد عاشور

تصميم:
محمد هاشم الكردي

رابطة علماء المسلمين | bayyinatre@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات
العدد التاسع من
مجلة بينات

الافتتاحية:

طالبان ما بعد الانتصار وواجب الأنصار ..... التحرير

بصائر من خطاب الوحي:

ما على المحسنين من سبيل ..... د هشام عقدة

قضايا منهجية:

صناعة الربانية ..... د. محمد يسري إبراهيم

الكفر بالطاغوت من أعظم مقتضيات الإيمان .....د. عادل بن محمد الشيخاني

نوازل معاصرة:

موقف المسلم من الصراع بين فئتين كافرتين ..... الشيخ عبد الله بن فيصل الأهدل

الأحلاف المعاصرة وأحوالها وأحكامها ..... د. هشام برغش

سير أعلام النبلاء المعاصرين:

الشيخ حسنين مخلوف .. مواقف رائدة في نصرة الدين وأهله ..... د.عبد الآخر حماد الغنيمي

حوارات وتجارب:

حوار مع فضيلة الدكتور محمد العبدة ..... د

عالمنا الإسلامي:

ندوة: المسلمون وتحولات النظام الدولي ..... د

حلف الناتو العربي الإسرائيلي الخلفيات والأبعاد ..... د.أنور قاسم الخضري

آفاق الفكر:

المشروع الإسلامي لأهل السنة، ما يمنعه.. ومن يدفعه؟ ..... د. عبد العزيز كامل

حرب المصطلحات وأثرها في تحريف الدين وتزييف الوعي ..... د. عبد الله الحميري

آخر ورقة:

رسالة الى دعاة التَّمَرُّد النِّسْوِيّ ..... د. عطية عدلان

طالبان ما بعد الانتصار.. وواجب الأنصار

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد أثبتت أحداث العقود القليلة الماضية أن شعب أفغانستان الأبي من أكثر شعوب العالم الإسلامي المعاصر بذلًا لنصرة الدين، حيث جعل الله تعالى ذلك الشعب بمجاهديه وراشديه وعلمائه وطلابه صخرة تحطم عليها بنيان القطب العالمي الثاني في هذا العصر، ممثلًا في اتحاد الإلحاد السوفيتي السابق، ثم شاء الله سبحانه أن يتحرر هذا البلد الإسلامي المبارك، وينتصر بعد جهاد طويل على القطب العالمي الأوحد بعده، ممثلًا في الاتحاد الأمريكي الذي تحالف معه الاتحاد الأوروبي وغيره من الدول المتحالفة على البغي والعدوان.

إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تُقْدم على غزو أفغانستان واحتلالها لمجرد تحقيق الهدف الهلامي الوهمي المعلن، وهو : (محاربة الإرهاب)؛ لأن الأمريكيين يعلمون قبل غيرهم أن حركة طالبان

ومن ورائها شعب الأفغان، لم يحاربوا، ولم يرهبوا إلا المعتدين على بلادهم، والطامعين في نهب ثرواتهم ، ومع ذلك فإن الجهاد الأفغاني الطويل كان في حقيقته جهادًا ضد الإرهاب الحقيقي للأفعى الأمريكية السامَّة الملساء؛ ولذلك فإن للشعب الأفغاني جميلاً ودَينًا على جميع الأمة، بَذَله من أمنه واستقراره ودماء أبنائه، ولابد لهذا الجميل أن يُذكَر فيُشْكر، وأقل شكره أن يبادر كل المخلصين في أمتنا للوقوف معه في محن جديدة تواجهه، وصعوبات شديدة تواجهه.

❁ منها : تجاهل ما يسمى بمؤسسات المجتمع الدولي منذ تحرير خروج الأمريكان وحتى الآن للاعتراف بحكومة أفغانستان الشرعية التي اكتملت أركانها بحسب تعريف الدولة في القوانين والأعراف الدولية، وهو تجاهل يترجمه عدم اعتراف أي دولة إسلامية أو غير إسلامية بتلك الحكومة، وهو ما يثير الكثير من الشكوك في تبييت نوايا من تربُّص النظام الدولي بتلك الحكومة إنْ لم تُقدِّم قرابين الولاء التي تقدمها عادةً حكومات العملاء على حساب هُويَّتها، واستقلال إرادتها.

❁ ومنها: أن أموال أفغانستان لا تزال قيد التجميد في البنوك الدولية، بالرغم من شدة الاحتياج إليها، وهي تُقدَّر بنحو عشرة مليارات من الدولارات، وتشتد حاجة الشعب الأفغاني إليها لإعادة إصلاح ما أفسدته حقبة الحروب الظالمة التي استمرت لنحو عشرين عامًا بعد الغزو الأمريكي الذي سبقه الاحتلال الروسي مدة عشر سنوات.

❁ ومنها: أن هناك قلة -بل ندرة- في التعاون الدولي في المجالات الاقتصادية والتقنية مع النظام الجديد، مع الاستعاضة عن ذلك بزيادة الضغوطات، والتهديد بالعقوبات.

❁ ومنها: أن كل ما سبق انعسكت آثاره على المجالات الاقتصادية والحالات المعيشية لهذا الشعب الغني في ثرواته ومقدراته، والفقير في التمتع بخيراته ومستحقاته، فأفغانستان تتربع على رقعة ثرية وغنية بكثيرٍ من الثروات والمقدرات.. ولو تساءل البعض: وهل في تلك البلاد الفقيرة أي ثروة؟! فالجواب: نعم؛ بل ثروات، فأرض أفغانستان غنية بمقادير هائلة من الكنوز المعدنية التي يمكن أن تمكنها من أن تكون إحدى الدول الغنية، فقد بدأت إدارة (بوش الابن) بعد سنوات قليلة من الغزو في القيام بعمليات بحث جيولوجي ومسح جوي لرصد مواطن الثروات الزاخرة في أنحاء أفغانستان المحتلة، مستعينةً بخرائط روسية صُودِرَت بعد الاحتلال السوفيتي، واستكمل (أوباما) مهمة (بوش)، فلما جاء التاجر الفاجر (ترامب)، رأى عدم الاستعجال في الانسحاب حتى تُؤمِّن أمريكا وسائل السيطرة على تلك الثروات، وأدلى بتصريح نشرته صحيفة النيويورك تايمز في (٢٦/٧/ ٢٠١٧) قال فيه: «هناك مثل قديم يقول: المنتصر دائمًا أَوْلَى بالغنائم»!!

❁ وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) أكَّدت في تقريرٍ لها ما أكدته صحيفة الواشنطن بوست في (١٤/٥/٢٠١٠) بأن الثروات المعدنية وحدها في أراضي أفغانستان تبلغ تريليون دولار، بينما أكَّد مسؤول حكومي أفغاني لجريدة البيان الإماراتية

(٢٠١٠/٨/٣١) أن الثروات المعدنية وغيرها في بلاده تُقدر بنحو ٣ تريليون دولار، وذكر أن فيها مخزونًا من النفط يبلغ نحو (١٠٦ مليار برميل)، إضافةً إلى (٤٠٠ مليار متر مكعب) من الغاز الطبيعي، ومناجم شاسعة من الذهب والنحاس والأحجار الكريمة، إضافةً إلى كميات قياسية من مادة (الليثيوم) التي تستخدم في تصنيع بطاريات الحاسوب والهواتف الذكية والسيارات الكهربائية.

أمريكا التي كلفت حربها في أفغانستان نحو تريليون دولار- عَزَمت على استردادها من خلال استغلال ثرواتها، لكن الصين فاجأتها وفاجأت العالم بالدخول على خط الأطماع والمنافسة على ثروات جارتها الفقيرة بالتوصل مع أطراف أفغانية للاستثمار في عمليات البحث عن المعادن بمليارات الدولارات، مع سعي حثيث لتثبيت أقدامها على طريق المصالح في أرض الأفغان.

روسيا بدورها كانت تضع تلك الثروات المحتملة نصب عينيها عندما غزت أفغانستان، إضافةً إلى تطلُّعها للوصول للمياه الدافئة في الخليج،حيث الثروات الضخمة والأسواق المتنوعة، لكن كل ما فشلت روسيا في فعله من وراء حربها العشرية الإجرامية، قد نفَّذته أمريكا مضاعفًا في حربها العشرينية التدميرية.. ولذلك فإن الروس يحملون أحقادًا وأضغانًا ثأرية للأمريكان، وهم بصدد ترجمته عمليًّا في تحالف استراتيجي مضاد، بدأ في التشكُّل مع الصين وإيران.

بين الدب الروسي والتنين الصيني، والثعلب الإيراني ستدور -كما تشير الشواهد- رَحَى صراع قادم ضد الأمريكيين، ولعل هذا أحد فصول ووجوه مكر الأمريكان لإعادة تأهيل -أو بالأَحْرى: توريط- الإمارة الإسلامية بأفغانستان، وبالطبع سيأتي دور المكر بغيرها من التجمعات الإسلامية الجهادية والسياسية للإيقاع بها مرة أخرى في خدمة المشروعات الأمريكية، لكن ينبغي هنا أن يقول الجميع لتلك المخططات: «هيهات.. هيهات»؛ لأننا إذا تأملنا في سياسة (التبريد) البايدنية في مختلف الساحات لتصفير المشكلات، سندرك أن أصحاب المكر الكبار وراء سُتُورهم أخبار وأسرار، لا يستهان بها، ولا يستعان عليها إلا بالله الواحد القهار. لقد انتصرت أفغانستان للأمة ودينها مرات ومرات، وعلى الأمة أن تنتصر لها هذه المرة؛ لأن نصرها نصرٌ للدين، وخطوة متقدمة في طريق التمكين.

ما الذي يَحُول -مثلًا- بين آلاف الموثرين في بلاد المسلمين وبين تقديم الدعم لتلك الحكومة الناشئة من خلال القنوات الرسمية للجمعيات الخيرية بغرض رفع الضرر، وتوفير الضرورات لجموع المتضررين من الضوائق الاقتصادية المعيشية التي عانى -ولا يزال يعاني منها- ذلك الشعب الصامد الصابر؟

ما الذي يمنع المنظمات الحقوقية والمؤسسات الإنسانية في البلدان الإسلامية من بذل مساعيها لرفع المعاناة، وتخفيف الضغوط وتفادي تأثير التهديد بالعقوبات الدولية على ذلك الشعب العريق؟

هل قامت المراكز البحثية والشخصيات

الاعتبارية الفكرية والسياسية وكذلك المنابر الإعلامية بواجب النصرة الأدبية من خلال توجيه الأنظار لعظمة الانتصار الذي أحرزه الشعب الأفغاني تحت قيادة حركة طالبان؟

وهل رافق ذلك الجهد الفكري والإعلامي في تمجيد التجربة الأفغانية الفريدة- جهدٌ موازٍ لفضح التحرش الغربي، والتصيُّد العلماني العربي، والتربُّص الرافضي الإيراني بأحدث التجارب الإسلامية السنية الناجحة في المشرق الإسلامي، والتي قامت بها حركةٌ تحولت إلى دولة ودولة تنتظر جولة بعد جولة؟

وهل نستطيع أن نقول: إن الهيئات والروابط العلمائية في مختلف البلاد الإسلامية قامت بكل دورها في استثمار حدث الانتصار باعتباره حدثًا تاريخيًّا فريدًا من نوعه قد جسد الكثير من سنن الله الكونية في نصر المستضعفين، وإثبات أن العاقبة للمتقين، وأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا، وبيان أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثرة بإذن الله، وأن الله تعالى يُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته، وأنه حق على الله ما علا شيء في هذه الدنيا إلا نزل..

إن مشهد الانتصار الأفغاني ثري وغني بالفوائد والدروس العملية والعبر التاريخية.

وأخيرًا:

فإن من جوانب المشهد التي لا ينبغي لعاقل التغافل عنها، أو التعامي عن تأثيراتها: أن نظامًا عالميًّا جديدًا يتشكل اليوم، أو هو قيد التشكل.

ومن أبرز شواهد ذلك -بحسب ما يظهر- أن حربًا باردة جديدة بين الشرق والغرب قد بدت بوادرها، بل بدأت مظاهرها تطغى على الساحة الدولية، وأفغانستان أحد أهم محاورها، والطرف الأول في هذه الحرب الباردة هو أمريكا وحلفاؤها الغربيون، بالإضافة إلى إمكانات عالم المسلمين (كما يحلم ويحلو للأمريكيين) بغرض إعادة استخدامهم عصا لضرب (الطرف الثاني)، وهم أعداء الروم التقليديون الذين يُمثِّلهم هذه المرة (بالإضافة الى الفرس والروس)؛ تنين الصين المتطلع إلى قضم التجارة العالمية اقتصاديًّا، ثم هضمها عسكريًّا.

ستدور أساسيات مجريات السياسة العالمية -والعلم عند الله- حول هذه الخلاصة لبضع سنين، أمَّا حواشيها فهي -في رأينا- مجرد تفاصيل، لكن تلك التفاصيل سيفصل فيها قول رب العالمين: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١] والمعنى كما قال المفسرون : أنه لولا أن الله تعالى يدفع بحكمته أهل الشر والعدوان بجهاد أهل الخير والإيمان، لَمَا استمرت حياة صالحة، ولا بقيت فئات من الناس مصلحة.

فاللهم عزَّ جاهك، وجلَّ ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله غيرك؛ اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، اهزم الكفر والشرك وأهله، وانصر الإسلام وأهله، وأنج برحمتك المستضعفين من المؤمنين، اللهم آمين.

موقف المسلم من الصراع بين فئتين كافرتين

الشيخ عبد الله بن فيصل الأهدل

أثارت حرب أوكرانيا وروسيا -وما يمكن أن ينشأ عن هذه الحرب من تحالفاتٍ قد يجد المسلم نفسه طرفًا فيها- سؤالًا حول الموقف الشرعي من مثل هذه الصراعات التي تكون بين الكفار، وهل يجوز للمسلم المشاركة فيها؟

وللجواب عن ذلك لابد من النظر في معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[1].

و«الطاغوت»: هو الشيطان، كما رواه البخاري عن عمر معلقًا، ووصله عبد بن حميد في (تفسيره)، وغيره، وسنده قوي.

وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد قال: الطاغوت: الشيطان.

والطاغوت يشمل أتباع الشيطان وحزبه من الكَهَنة، والذين يحكمون بغير ما أنزل الله، وغيرهم.

وكما أن القتال في سبيل الطاغوت ممنوع في

(١) سورة النساء:٧٦.

الشرعو فهناك صور أخرى ممنوعة ومحرمة لأنها ليست من سبيل الله.

فعن أبي موسى قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: الرجل يقاتل حميةً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل رياءً، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»(٢).

وقال ﷺ: «**ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقُتل، فقتلة جاهلية**»(٣).

و«عُمِّيَّة»: هي الأمر الأعمى، لا يستبين وجهه.

«لعصبة»: معناه: إنما يقاتل عصبيةً لقومه أو هواه.

وقد تواترت النصوص -كتابًا وسُنَّة- أن الأصل في القتال إنما يكون بين المسلمين الذين هم أولياء الرحمن، وبين الكفار الذين هم أولياء الشيطان، كما أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(٤).

وقد قصَّ الله تعالى علينا قصة أكبر قوتين كافرتين في العهد النبوي عندما كانت رَحَى الحرب دائرة بينهما:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾(٥).

وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم بدرٍ، ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، قال: يفرح المؤمنون بظهور الروم على فارس(٦).

﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾، أي: يوم يغلب الرومُ الفرسَ ويقهرونهم ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشَّرِّ أهون من بعضٍ، ويحزن يومئذ المشركون»(٧).

فهذا هو الحدُّ الجائز في موقف المسلم من الصراع بين قوتين كافرتين، وهو الفرح بانتصار أقرب الطائفتين للحق، أو أخف الطائفتين ضررًا على الإسلام والمسلمين، أمَّا تجاوز ذلك إلى المشاركة في القتال نصرةً لإحدى الطائفتين الكافرتين، فهذا لا يجوز -لغير المُكرَه- للمحاذير الشرعية التالية:

١- أنَّه قتال في سبيل الطاغوت، وليس في سبيل الله؛ لأن كِلَا الطرفين لا يقاتل لإعلاء كلمة الله، وإنما القتال في الإسلام لإعلاء كلمة الله، كما تقدم في الآية والحديث.

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ

(٢) رواه البخاري (٧٤٨٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٤٨).

(٤) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٢٣٢).

(٥) سورة الروم:١-٤.

(٦) رواه الترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني.

(٧) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٣٦).

﴿فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٨]، والفتنة في هذه الآية: الشرك.

فقد روى الطبري بسندٍ حسنٍ من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، قال: حتى لا يكون شرك.

أمَّا القتال مع طائفةٍ كافرةٍ ضد أخرى كافرة، فهذا قتال لتكون فتنة، ولتكون كلمة الكفر هي العليا، وهو خلاف مقصود القتال في الإسلام.

٢- أن هذا الفعل موالاةٌ للكفار، وقد تواترت النصوص بتحريم موالاتهم -أي: نصرتهم- ولأنه يؤدي إلى تقويتهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾[٩]، أي: إن لم تفعلوا موالاة المؤمنين وقطع الكافرين، تكن فتنة في الأرض بقوة الكفر، وضعف الإسلام.

٣- أنَّ هذا الفعل مخالفٌ لسنة النبي ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين الذين أُمرنا باتباعها، ومخالف لعامة العلماء وأئمة الدين في القرون المفضلة وما بعدها؛ فإنَّه لم يعرف أنَّ المسلمين كانوا يدخلون في أحلافٍ أو يستعينون بالكفار في حروبٍ لا يكون الحكم فيها للإسلام، وما ورد من خلافٍ بين العلماء من التحالف أو الاستعانة بالكافر، فإنَّهم يشترطون لذلك شروطًا؛ منها: أن يكون الحكم فيها ظاهرًا للإسلام.

قال الإمام الشافعي: «ولا يجوز لأهل العدل عندي أن يستعينوا على أهل البغي بأحدٍ من المشركين؛ ذمي ولا حربي، ولو كان حُكم المسلمين الظاهر، ولا أجعل لمَن خالف دين الله عزَّ وجلَّ الذريعة إلى قتل أهل دين الله، قال: ولا بأس إذا كان حُكْم الإسلام الظاهر أن يُستعَان بالمشركين على قتال المشركين»[١٠].

٤- أنَّه سيؤدي إلى قتل مسلمين بغير حقٍّ في الجهة المقابلة، أو من الجهتين، فيقتل المسلم أخاه المسلم في الجهة المقابلة، وهذا محرم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾[١١].

وقال ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**». قيل: يا رسول الله،

القتال مع طائفةٍ كافرةٍ ضد أخرى كافرة، فهذا قتال لتكون فتنة، ولتكون كلمة الكفر هي العليا، وهو خلاف مقصود القتال في الإسلام

(٨) الأنفال:٣٩.

(٩) سورة الأنفال:٧٣.

(١٠) الأم، للشافعي (٤/٢٣٢).

(١١) سورة البقرة: ٨٤-٨٦.

هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه أراد قتل صاحبه»[١٢].

وقال ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كُفْر**»[١٣].

شبهات والرد عليها:

١- جاء عن ذي مِخبَر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، تغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم**»[١٤].

فهذا حديث صحيح، ولكن متنه لا يدل على المطلوب، وقول من قال: إنَّ كون النبي ﷺ يخبر عن مصالحة المسلمين للروم، ومشاركتهم في القتال، ولا ينكر ذلك ﷺ، يدل على جواز التحالف مع الكفار ضد عدوٍّ كافرٍ.

وهذا الاستدلال فيه نظر:

فمجرد إخباره ﷺ لا يدل على الجواز، نعم إذا جاء الخبر في سياق المدح والامتنان، فقد يدل على ذلك ما لم يعارضه معارض، وللمسألة تفصيل في كتب الشروح والأصول[١٥].

ومما يدل على أنَّ هذا الحديث خرج مخرج الإخبار المجرد، وأنَّه ليس فيه مدح وامتنان، بل فيه ما يدل على المنع من مثل هذا التحالف، وأنَّه لا يُؤمن غدرهم وخيانتهم، فقد جاء مُصرَّحًا به في نهاية الحديث، فإنَّ للحديث تكملةً تدل على ذلك، وهي بالإسناد نفسه، إلَّا أنَّ أبا داود أوردها مرةً مختصرةً في باب الصلح مع العدو، وأوردها مُطوَّلةً في باب ما يذكر من الملاحم، وإليك الرواية المطولة عنده: «ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم، فتُنصرون وتغنمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمَرْجٍ ذي تُلُولٍ[١٦]، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم، وتَجْمَعُ للملحمة»[١٧]، وبهذا يظهر أنْ لا حجة في حديث مصالحة الروم.

وهذا الحديث -بالإضافة إلى أنَّه إخبار مجرد، وليس فيه امتنان أو مدح- له معارض صحيح صريح، **فعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرَج رسول الله ﷺ قِبَل بدرٍ، فلمَّا كان بحرَّة الوبَرة -موضع على نحو من أربعة أميالٍ من المدينة- أدركه رجلٌ قد كان يُذكَر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلمَّا أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك، وأُصيب معك. قال رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟». قال: لا. قال: «فارجع، فلن أستعين بمشركٍ». قالت: ثمَّ مضى حتى كنَّا بالشجرة أدركه الرجل، فقال كما**

(١٢) رواه البخاري (٦٤٨١)، ومسلم (٧٤٣٤).

(١٣) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٢٣٠).

(١٤) سنن أبي داود (٢٧٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٦١٢).

(١٥) راجع: البحر المحيط (٤١٠/٤)، المجموع (٢٢٤/٨)، التلخيص الحبير (٢٢٢/٢).

(١٦) «المَرج»: الموضع الذي ترعى فيه الدواب. وقيل: أرض واسعة ذات نبات كثير. و«التُّلول»: جمع تَل، وهو الموضع المرتفع. وقيل: كل ما اجتمع على الأرض من تراب أو رمل. راجع: عون المعبود (٢٦٨/١١، ٢٦٩).

(١٧) سنن أبي داود (٤٢٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٦١٢).

قال أوَّل مـرَّة، فقال النبي ﷺ كما قـال أوَّل مرَّة. قال: «فارجع، فلن أستعين بمشركٍ». قال: ثمَّ رجع فأدركه بالبيـداء، فقال له كما قال أوَّل مرَّة: «تؤمن بالله ورسـوله؟». قال: نعم، فقال له رسـول الله ﷺ: «فانطلق»[18].

فقوله: «**فلن أستعين بمشركٍ**» نكرة في سياق النفي تدل على العموم.

فإذا كان النبي ﷺ لم يسوغ أن يستعين بمشركٍ على المشركين مع أن الأمر ظاهر للإسلام، فكيف إذا كان الكفار هم الذين يسـتعينون بالمسـلمين على كفـارٍ آخرين في الحقيقـة، والأمر في ذلك ظاهر للكفار، وليس للمسلمين؟!

وعن خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب، عن أبيـه، عن جدِّه، قال: **أتيت رسـول الله ﷺ -وهو يريد غزوًا- أنا ورجلٌ من قومي، ولم نسلم، فقلنا: إنَّا نستحي أن يشهد قومنا مشهدًا لم نشهده معهم. قال: «وأسلمتما؟». قلنا: لا. قال: «فإنَّا لا نستعين بالمشركين على المشركين». قال: فأسلمنا وشهدنا معه**[19].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: خرج رسـول الله ﷺ يوم أُحُد، حتـى إذا خلَّف ثنية الوداع، إذا كتيبة، فقال: «مَن هؤلاء؟». قالوا: بنـو قينقاع، وهـم رهط عبد الله بن سـلام. قال: «وأسـلموا؟». قالوا: لا، بل هم على دينهم. قال: «قولوا لهم: فليرجعوا؛ فإنَّا لا نسـتعين بالمشركين على المشركين»[20].

فأنت تـرى في هذه الأحاديث الصحيحة أنَّ النبي ﷺ أبَى أن يستعين بالمشركين على المشركين في القتـال، مع أن الحكم الظاهر هو للإسـلام، فكيف يجـوز التحالف معهـم والحكم الظاهر لهم؟! بل هذا يدخل في موالاتهم ونصرتهم على دينهم الباطل.

٢- شـهوده ﷺ حِلْف المطيبين، فقد روى عبدالرحمن بن عـوف رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**شـهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنـا غلام، فـما أحـب أنَّ لي حُمْـر النَّعَم وأنِّي أنكثه**»[21].

وفي مرسل طلحة بن عوف زيادة: «ولو أُدْعَى

النبي ﷺ أبَى أن يستعين بالمشركين على المشركين في القتال، مع أن الحكم الظاهر هو للإسلام، فكيف يجوز التحالف معهم والحكم الظاهر لهم؟ بل هذا يدخل في موالاتهم ونصرتهم على دينهم الباطل

(١٨) صحيح مسلم (١٨١٦).

(١٩) رواه الطحاوي في المشكل (٢٥٧٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١١٠١).

(٢٠) المستدرك (٢٥٦٤)، وصححه ابن حجر في التلخيص الحبير (١٠٠/٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠١)، لكن ذكر: «أحد» مشكل؛ فهو مخالف لما أطبق عليه الأخباريون من أن جلاء بني قينقاع كان بعد غزوة بدرٍ، فلعله تأخر إجلاء بعضهم إلى أُحُد، والله أعلم.

(٢١) مسـند أحمـد (١٦٥٥)، وصححـه الألباني في السلسـلة الصحيحة (١٩٠٠).

به في الإسلام لأجبتُ»[٢٢]. قال الألبانيُّ عن هذه الزيادة: وهذا مسند صحيح لولا أنَّه مرسل، ولكن له شواهد تُقوِّيه[٢٣].

وهذا أيضًا لا حجة فيه؛ لأنه حلف على نصرة المظلوم في المظلومية الواضحة، وليس في التحالفات المعقدة اليوم في النظام العالمي، والذي يكون الظلم فيها مشتركًا في الغالب مع تفاوتٍ، كما أنه ليس فيه القتال على ذلك، فقد تكون نصرة المظلوم بوسائل أخرى غير السيف كوسائل اقتصادية أو اجتماعية أو إعلامية، كما حدث حين تحالفت بطون قريش ضد بني هاشم وبني المطلب في حصار الشِّعب، والدليل إذا تطرَّق له الاحتمال، سقط به الاستدلال، خصوصًا مع وجود المعارض الصحيح، وهو ما قدَّمنا من أدلة.

٣- ولا حجة في دخول خزاعة في حلف النبي ﷺ يوم الحديبية[٢٤]؛ لأن الحكم الظاهر في هذا الحلف هو للإسلام، مع أنَّ خزاعة قد كان فشا فيهم الإسلام، ومما يدل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[٢٥]. قال مجاهد: ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾: خزاعة: حلفاء محمَّد[٢٦].

٤- وما يذكر من مصلحةٍ قد تحصل للمسلمين بسبب ذلك، فهي ملغاة شرعًا طالما ثمنها هو القتال والنصرة لنظامٍ كافرٍ؛ لمصادمتها للنصوص السابقة.

٥- كما لا حجة في نصوص دَفْع الصائل؛ لأنَّ الصيال إنما هو على نظام الدولة المعادية، لا على أفراد الشعب.

٦- وأمَّا ما رواه الحاكم عن عامر بن عبدالله ابن الزبير، عن أبيه، قال: نزل بالنجاشي عدوٌّ من أرضهم، فجاءه المهاجرون، فقالوا: إنَّا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك، وترى جَرأتنا، ونَجْزيك بما صنعت معنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله خيرٌ من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

فالتحقيق: أن إسناده ضعيف كما أشار إليه الشافعي وغيره، فيه مصعب بن ثابت الزبيري، ضعَّفه أحمد وابن معين وأبو حاتم والدارقطني وغيرهم، ولو قُدِّر ثبوته، فالنجاشي حاكم مسلم، ويحمي المسلمين وحقوقهم، فلا ينطبق على الحال.

وفي (المدوَّنة): قلت: أرأيت لو أن قومًا من المسلمين أسارى في بلاد الشرك، أو تجارًا استعان

(٢٢) السيرة النبوية، لابن هشام (٢٦٦/١).

(٢٣) فقه السيرة (ص٧٢).

(٢٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٢٨٦/٤).

(٢٥) سورة التوبة: ١٤.

(٢٦) رواه الطبري من طرق (١٦٥٤٣، ١٦٥٤٠، ١٦٥٤٤، ١٦٥٤٥)، وسنده صحيح عن مجاهد، ورواه ابن أبي حاتم (١٠٠٣٥، ١٠٠٣٦)، وروي أيضًا عن عكرمة والسدي من قولهما.

بهم صاحب تلك البلاد على قوم من المشركين ناوأوه من أهل مملكته، أو من غير أهل مملكته، أترى أن يقاتلوا معه أم لا؟

قال: سمعت مالكًا يقول في الأسارى يكونون في بلاد المشركين، فيستعين بهم الملك على أن يقاتلوا معه عدوه، ويُجَاء بهم إلى بلاد المسلمين؟

قال: قال مالك: لا أرى أن يقاتلوا على هذا، ولا يحلُّ لهم أن يسفكوا دماءهم على مثل ذلك. قال مالك: وإنما يقاتل الناس ليدخلوا في الإسلام من الشرك، فأما أن يقاتلوا الكفار ليدخلوهم من الكفر إلى الكفر، ويسفكوا دماءهم في ذلك، فهذا ممَّا لا ينبغي، ولا ينبغي لمسلمٍ أن يسفك دمه على هذا[٢٧].

وقال سحنون: ولو استعان بهم المشركون على قتال عدوٍّ لهم، لم ينبغِ أن يعينوهم، إلا أن يُغِيرَ عليهم بعض أهل الشرك ويسبوهم، فيخاف المسلمون على أنفسهم من ذلك، فلا بأس أن يقاتلوا حينئذٍ مع الذين هم معهم. ثم قال: وقاله كله ابن الماجشون وأصبغ[٢٨].

وقال محمَّد بن الحسن: «وإن كان حكم أهل الشرك هو الغالب، فلا ينبغي للمسلمين أن يقاتلوا مع أهل الشرك إلا أن يخافوا على أنفسهم، فيدفعون عنها»[٢٩].

وقال ابن تيمية عمَّن يقاتل مع التتر ضد كافرين آخرين: «لا يقاتل معهم -غير مُكرَه- إلا فاسق، أو مبتدع، أو زنديق»[٣٠].

فالحاصل: أنَّه لا يجوز أن يقاتل مع الكفار كفارًا آخرين يكون الظهور فيه للكافرين، إلا في حالة الضرورة؛ كحالة الإكراه، أو خوف المسلمين على أنفسهم ونسائهم من صيال الكفار عليهم، فهنا لهم دفع الصائل، وهذا الحكم ينطبق على المدنيين والعسكريين، فالمدنيون مَن استطاع منهم الهجرة أو الانتقال إلى مكانٍ آمنٍ فليفعل، وأمَّا العسكريون فمَن قدر منهم على الاحتيال أو الهرب فليفعل، فإن أُكْره وأُجْبر على القتال، ولم يستطع الفرار، فلينوِ بقتاله قتال الكفار، فإن علم أن الذين سيقابلهم مسلمون، فلا يجوز قتالهم بحالٍ، ولو أدَّى ذلك إلى قتله؛ لأن عصمة دمه ليست بأَوْلَى من عصمة دمائهم، وكلاهما مسيءٌ حين خرج مختارًا في معركةٍ يساند فيها الكافرين.

أنَّه لا يجوز أن يقاتل مع الكفار كفارًا آخرين يكون الظهور فيه للكافرين، إلا في حالة الضرورة؛ كحالة الإكراه، أو خوف المسلمين على أنفسهم ونسائهم من صيال الكفار عليهم، فهنا لهم دفع الصائل

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

(٢٧) المدونة (٥١٨/١).

(٢٨) النوادر والزيادات (٥٥١/١٤).

(٢٩) السير الصغير (٢٤٩).

(٣٠) مجموع الفتاوى (٥٥٢/٢٨).

الكفر بالطاغوت من أعظم مقتضيات الإيمان

د. عادل بن محمد الشيخاني

لا شك أن أعظم مقتضيات الإيمان هو الكفر بالطاغوت، والبراءة من الشرك وأهله، وإظهار العداوة والبغضاء للمشركين، وموالاة أولياء الله ونصرتهم ومؤازرتهم؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال رسول الله ﷺ: «أوثق عُرَى الإيمان: الحبُّ في الله، والبغضُ في الله».

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب: «أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:

الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك

له، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير مَن تركه.

والثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله، والتغليظ في ذلك والمعاداة، وتكفير من فعله»[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: «فاعلموا -معشر الإخوان- أن الله تعالى أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعرفهم ما خُلِقُوا له من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وتَرْك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله، والرغبة عن عبادة غيره، والبَراءة منها، والكفر بالطاغوت -وهو الشيطان- وما زيَّنه من عبادة الأوثان، فدعا قريشًا والعرب إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله لما دلَّت على بطلان كل ما يُعبَد من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده دون كل ما سواه، وهذا التوحيد الذي خلق الله الخَلْق لأجله، وأرسل الرسل لأجله، وأنزل الكتب لأجله- وهو أساس الإيمان والإسلام ورأسه، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله من عبدٍ سواه»[2].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله: «اعلم -رحمك الله تعالى- أنَّ أول ما فرَضه الله على ابن آدم: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فأمَّا صفة الكفر بالطاغوت: فأن

> **أنَّ أول ما فرَضه الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]،**

تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها، وتكفر أهلها وتُعَاديهم.

وأمَّا معنى الإيمان بالله: فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون ما سواه، وتُخْلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كلِّ معبودٍ سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملَّة إبراهيم التي سفه نفسه مَنْ رغب عنها، وهذه هي الأسوة التي أخبَر الله بها في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]»[3].

وقال رحمه الله: «واعلم أنَّ الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت، والدليل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة:٢٥٦]. الرشد هو دين محمد ﷺ.

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/٢٢).

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٤/٣٢٨).

(٣) الدرر السنية (١/١٦١).

والغي: دين أبي جهلٍ. والعروة الوثقى: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة للنفي والإثبات، تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى، وتُثْبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له»[٤].

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله: «هذه كلمات في بيان الطاغوت، ووجوب اجتنابه، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾[البقرة:٢٥٦]، فبيَّن تعالى أنَّ المستمسك بالعروة الوثقى هو الذي يكفر بالطاغوت، وقدم الكفر به على الإيمان بالله؛ لأنه يدَّعي المُدَّعي أنه يؤمن بالله وهو لا يجتنب الطاغوت، وتكون دعواه كاذبةً، وقال تعالى: ﴿بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فأخبر أن جميع المرسلين قد بُعِثُوا باجتناب الطاغوت، فمَن لم يجتنبه، فهو مخالفٌ لجميع المرسلين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾[الزمر:١٧]، ففي هذه الآيات من الحُجج على وجوب اجتنابه وجوه كثيرة، والمراد من اجتنابه هو بغضه، وعداوته بالقلب، وسبه وتقبيحه باللسان، وإزالته باليد عند القدرة، ومفارقته، فمَن ادَّعى اجتناب الطاغوت، ولم يفعل ذلك، فما صدق»[٥].

(٤) الدرر السنية (١٦٣/١)، ومجموعة التوحيد (٣٢٨ - ٣٣٠).

(٥) الدرر السنية (٥٠٢/١٠).

وقد تنوَّعت عبارات السلف في تحديد معنى **(الطاغوت)**:

١-قال ابن جريرٍ الطبري رحمه الله: «والصواب من القول عندي في (الطاغوت): أن كل ذي طغيانٍ على الله، فعُبِدَ من دون الله، إما بقهرٍ منه لمن عَبَده، وإما بطاعةٍ ممن عبده له، إنسانًا كان ذلك المعبود، أو شيطانًا أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيءٍ، وأرى أصل (الطاغوت): الطغووت، من قول القائل: طغا فلان يطغو إذا عَدَا قدره، فتجاوز حدَّه»[٦].

٢-وقال ابن قتيبة[٧] رحمه الله: «كل معبودٍ من حجرٍ أو صورةٍ أو شيطانٍ فهو جِبْتٌ وطاغوتٌ»[٨].

٣-وقال مجد الدين ابن الأثير رحمه الله في معنى قول النبي ﷺ: «**لا تحلفوا بآبائكم، ولا بالطواغي**»[٩]: «ويجوز أن يكون أراد بالطواغي من طغى في الكفر، وجاوز القدر، وهم عظماؤهم ورؤساؤهم، وأمَّا الطواغيت فجمع طاغوت، وهو الشيطان أو ما يُزيِّن لهم أن يعبدوه من الأصنام»[١٠].

(٦) تفسير الطبري (٢١/٣).

(٧) ابن قتيبة: العلَّامة الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المروزي، إمام من أئمة السنة، من تصانيفه: غريب القرآن، وغريب الحديث، توفي سنة ٢٧٠هـ. سير أعلام النبلاء (٢٩٦/٣).

(٨) تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة (١٥٨).

(٩) الحديث أخرجه مسلم (١٦٤٨)، كتاب الإيمان، باب: (مَن حلف باللَّات والعُزَّى فليقل: لا إله إلا الله) . عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه بلفظ: «لا تحلفوا بآبائكم، ولا بالطواغي».

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥٦٤).

٤-وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الطاغوت: كل مُعظَّم ومُتَعظِّم بغير طاعة الله ورسوله، إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان»[١١].

وقال أيضًا: «الطاغوت: اسم جنسٍ يدخل فيه الشيطان والوثن والكهان والدرهم والدينار»[١٢].

٥-وقال ابن القيِّم رحمه الله: «الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتَّبعونه على غير بصيرةٍ من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعةٌ لله»[١٣].

٦-وقال القرطبي رحمه الله: «الطاغوت: الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال»[١٤].

٧-وقال الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله: «والطاغوت عام، فكل ما عُبِدَ من دون الله، ورضي بالعبادة من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ في غير الله ورسوله، فهو طاغوت.

والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة:

الأوَّل: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

(١١) جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم (٣٧٣/٢).

(١٢) مجموع الفتاوى (٥٦٥/١٦، ٥٦٦).

(١٣) إعلام الموقعين (٩٢/١).

(١٤) الجامع في أحكام القرآن (٢٥٧/٢)، طبعة دار الفكر، بيروت.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الطاغوت: كل مُعظَّم ومُتَعظِّم بغير طاعة الله ورسوله، إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان

﴿٦٠﴾ [يس:٦٠].

الثاني: الحاكم الجائر المُغيِّر لأحكام الله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾[النساء:٦٠].

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله،

قال ابن القيِّم رحمه الله: الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فطاغوت كل قومٍ: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتَّبعونه على غير بصيرةٍ من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعةٌ لله

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[المائدة:٤٤].

الرابع: الذي يدَّعي علم الغيب من دون الله، والدليل قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ

فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٦، ٢٧]، وقال تعالى:﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[الأنعام:٥٩].

الخامس: الذي يُعبَد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة، والدليل قوله تعالى:﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[15] [الأنبياء:٢٩].

٨- قال الشَّيخ سليمان بن سحمان رحمه الله بعدما رجح قول ابن القيِّم في تعريف الطاغوت: «وحاصله أنَّ الطاغوت ثلاثة أنواع: طاغوت حكم، وطاغوت عبادة، وطاغوت طاعة ومتابعة»[16].

وإنَّ أشمل التعاريف وأحسنها: تعريف الإمام ابن القيِّم رحمه الله، وهو ما لخَّصه الشيخ سليمان بن سحمان، وقسَّم الطاغوت إلى ثلاثة أنواع: (طاغوت حكم، وعبادة، وطاعة ومتابعة)، وهذه الصور الثلاث أظهر وأبشع صور الطاغوتية؛ حيث إنَّ الطاغوت إذا طغى وتجبَّر وتجاوز حدَّه، ادَّعى الحاكمية، فيلزم الناس بالتحاكم إليه، أو ادعى الألوهية وألزم الناس بعبادته، أو رَضي من العباد أن يتَّخذوه إلهًا يعبدونه بأنواعٍ من العبادات، أو أنَّ طغيانه يدفعه إلى أن يلزم الناس باتباع ما يهواه لهم، كما قال كبير الطواغيت فرعون:﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[غافر:٢٩]، وهذا يكاد يكون شعارًا لجميع الطواغيت بشتَّى أنواعها في جميع العصور والدُّهور؛ حيث يريدون السيطرة والهيمنة على الناس، وجَعْلهم عبيدًا ومملوكين يُغنُّون بمدحهم وثنائهم وإطرائهم صباحَ مساءَ، وينفذون ما يُمْليه عليهم مما يوحى إليه من شياطين الجن والإنس.

ومنازعة الله في الحكم والطاعة والعبادة: منازعتُهُ في أخصِّ خصوصيات الربوبية والألوهية، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يحكم، ولا مُعقِّب لحكمه،﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف:٤٠]، والطاعة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، أو لمَن أَذِنَ الله بطاعته، وطاعته تبع لطاعته؛ كالنبي ﷺ؛ لأنه مُبلِّغٌ عن الله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم:٣، ٤]، والعبادة لا تكون إلا لله، وهي الغاية التي خُلِقَ الثَّقلان من أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦]،﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن:٢٠].

١-تكفير الطاغوت، وبيان كفره، كما قال تعالى:﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾[الكافرون:١، ٢].

٢-المُفاصلة والتمايز عن منهج الطواغيت ودينهم، كما قال تعالى:﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[الكافرون:٦].

(١٥) فتاوى الأئمة النجدية (١/٣٣٤، ٣٣٥).

(١٦) فتاوى الأئمة النجدية (١/٣٣٧).

٣-معاداتهم وبغضهم والتبرُّؤ منهم، وممَّا يعبدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾[الممتحنة:٤].

قال ابن القيِّم رحمه الله: >لمَّا نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال<(١٧).

وقال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله عند آية الممتحنة: >فهذه هي ملَّة إبراهيم التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠]، فعلى المسلم أن يُعادي أعداء الله، ويُظْهر عداوتهم، ويتباعد عنهم كلَّ التباعد، وألَّا يواليهم، ولا يخالطهم<(١٨).

ولابدَّ على المسلم أن يعلم أن إظهار ملَّة إبراهيم من البراءة من الشرك وأهله، وإظهار العداوة والبغضاء لهم- أمرٌ ليس باليسير، فهو حرب على ملة الكفر والشرك، فليستعدَّ لذلك الأمر، فإنهم لا يألون في إيذائه وقَتْله ومحاربته بشتَّى الوسائل.

ولذلك، **يقول الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمه الله:** >وهذا هو إظهار الدين، لا كما يظن الجَهَلة من أنه إذا تركه الكفار، وخلوا بينه وبين أن يصلي ويقرأ القرآن، ويشتغل بما شاء من النوافل- أنه يصير مُظْهرًا لدينه، هذا غلط فاحش؛ فإنَّ مَن يصرِّح بالعداوة للمشركين والبراءة منهم لا يتركونه بين أظهرهم، بل إما قتلوه، وإما أخرجوه إن وجدوا إلى ذلك سبيلًا، كما ذكر الله عن الكفار، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾[إبراهيم:١٣]، وذكر عن أهل الكفر أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[الكهف:٢٠]، وهل اشتدَّت العداوة بين الرسل وقومهم إلا بعد التصريح بمسبَّة دينهم، وتسفيه أحلامهم، وعَيْب آلهتهم<(١٩).

٤-ويكون الكفر بالطاغوت أيضًا باجتنابهم، واعتزالهم، وعدم مخالطتهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾[الزمر:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦]، وهذه الآية الكريمة تُبيِّن مدى أهمية اجتناب الطاغوت، وأنَّ الله بعث الرسل في كل أُمَّةٍ ليعلموا الناس عبادة الله، واجتناب الطاغوت؛ لأنَّ العبادة لا تخلص لله، والوحدانيَّة في العبادة لا تكون لله إلا بالكفر بالطاغوت الذي دائمًا ما يدَّعي لنفسه صفات الألوهية،

(١٧) بدائع الفوائد، لابن القيم (٩٧/٣)، تحقيق محمد الزغلي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ. دار المعالي، عمَّان، الأردن.

(١٨) الدرر السنية (٢٢١/٨).

(١٩) الدرر السنية (٢٠٧/٨).

ويدعو النـــاس إلى عبادته، والخضوع والخنوع لأوامره ونواهيه؛ ولذا كانت مهمة الرسل: تعليم الناس اجتناب الطاغـــوت، وتحذيرهم من شرِّه الوخيـــم، وقال تعالى على لســـان إبراهيم عليه السلام:﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٤٨].

٥- ويكـــون أيضًـــا بالقســـوة والغلظة في التعامل معهم، ومع أوليائهم وسَدَنتهم، كما قال تعـــالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ﴾[التوبة:١٢٣].

فلا يجد الطاغوت وأعوانه من المســـلم إلا الغلظة والشـــدَّة والعداوة والبغضاء، ولن يجدوا من مؤمنٍ رحمةً ولا رأفةً.

٦- ومن لـــوازم الكفر بالطاغـــوت: انتفاء موالاتهم، أو الركون إليهـــم، أو التعاون معهم، كـــما قـــال تعـــالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة:١].

وقـــال تعـــالى:﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾[المجادلة:٢٢]،﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾ [المائدة:٨١].

قـــال أبو الوفـــاء ابن عقيـــل الحنبلي رحمه اللـــه: >إذا أردتَ أن تعـــرف محل الإســـلام من أهل الزمان، فـــلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المســـاجد، ولا في ضجيجهم بـ (لبَّيك)، ولكن انظـــر إلى مُوَاطئتهم لأعداء الشريعـــة، فاللُّجأ اللُّجأ إلى حصن الديـــن، والاعتصام بحبل الله المتين، والانحياز إلى أوليائه المؤمنين، والحذر الحذر من أعدائه المخالفين، فأفضل القرب إلى الله تعالى: مَقْت مَن حاد الله ورسوله، وجهاده باليد واللسان والجنان بقدر الإمكان<[٢٠].

٧- ويكـــون أيضًـــا بجهادهـــم وقتالهـــم، وتطهـــير الأرض منهـــم عند توفُّر القـــدرة، قال تعـــالى:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النســـاء:٧٦]، والطواغيـــت أئمـــة الكفر، وقد أمرنـــا اللـــه بقتالهـــم:﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾[التوبة:١٢].

في نهاية هذا المبحث نَودُّ أن نشـــير إلى أن من أهم لوازم الكفر بالطاغـــوت واجتنابه: تَرْك

(٢٠) الدرر السنية (٢٣٨/٨).

التحاكم إلى الطواغيت، وعدم تحكيم قوانينهم الوضعية الكفرية، والبراءة ممَّن شرعوها من دون الله تعالى من تحليل الحرام، وتحريم الحلال، ورفض ذلك كليًّا، فلا إيمان لمَن تحاكم إلى الطاغوت، أو رَضي بحكمه، أو حكم به، فإنَّ الحكم لا يكون إلا لله ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[يوسف:٤٠]، وقد أخبَر الله عن حال أولئك الَّذين يزعمون الإيمان، ثم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويرجعون إليهم في حل نزاعاتهم وخلافاتهم بعدما أمَر الله بالكفر بالطاغوت، وأن ذلك من لوازم الإيمان، ولا يصحُّ الإيمان إلا به، فقال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[النساء:٦٠، ٦١]، فحَكَم الله عليهم بالنفاق مع أنهم يدَّعون الإيمان، ويزعمون أنهم مؤمنون.

ونختم القول بوصيَّتين جليلتين:

الأولى للإمام المجدد محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله حيث قال:

>فالله الله يا إخواني، تمسَّكوا بأصل دينكم؛ أوله وآخره، أُسِّه ورأسه، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم؛ واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وابغضوا مَن أحبهم أو دافع عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال: ما عليَّ منهم، أو قال: ما كلَّفني الله بهم، فقد كذب على الله وافترى، بل كلَّفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم، ولو كانوا إخوانه وأولاده.

فالله الله، تمسَّكوا بأصل دينكم لعلكم تَلْقَون ربكم لا تشركون به شيئًا، اللهم توفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين<[21].

والوصية الثانية للأستاذ سيد قطب[22] رحمه الله؛ حيث يقول:

>إنَّ تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت، والدينونة لله وحده، مهما عظمت وشقت- أقلُّ وأهون من تكاليف العبودية للطاغوت، إنَّ تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطُّمأنينة على الحياة والمقام والرزق، إنَّها تكاليف بطيئة مديدة، تكاليف في إنسانيَّة الإنسان ذاته، فهذه الإنسانية لا توجد، والإنسان عَبْدٌ للإنسان، وأي عبودية شر من خضوع إنسانٍ لما يشرعه له إنسان؟! وأي عبودية شر من تعلُّق قلب إنسانٍ بإرادة إنسانٍ آخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟! وأي عبودية شر من أن تُعلَّق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله

(٢١) الدرر السنية (١١٩/٢، ١٢٠).

(٢٢) سيد قطب: ابن إبراهيم، مفكر وأديب إسلامي كبير، جاد بنفسه في سبيل الله، له جهود كبيرة في بيان الحق، ومعرفة الواقع، وكشف الجاهلية المعاصرة، من أشهر مؤلفاته: (تفسيره في ظلال القرآن، معالم في الطريق)، أُعْدِمَ سنة ١٣٨٧هـ. الأعلام (١٤٧/٣).

ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطامٌ أو لجامٌ يقوده منه كيف ما شاء إنسان؟!

على أن الأمر لا يقف عند حدِّ هذه المعاني، إنه يهبط ويهبط حتى يُكلِّف الناس في حكم الطواغيت أموالهم التي لا يحميها شرعٌ، ولا يحوطها سياجٌ، كما يكلفهم أولادهم؛ إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصوُّرات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات فوق ما يتحكَّم في أرواحهم، وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم على مذبح هواه، ويقيم في جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه، ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية؛ حيث لا يملك أن يمنع فتاته من الدعارة والتي يريدها الطواغيت؛ سواء في صورة الغصب المباشر كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ، أو في صورة تنشئتهنَّ على تصورات ومفاهيم تجعلهنَّ نهبًا مباحًا للشهوات تحت أي شعارٍ، وتمهد لهنَّ الدعارة والفجور تحت أي شعارٍ، والذي يتصور أنه ينجو بماله وعِرْضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله إنما يعيش في وهمٍ، أو يفقد الإحساس بالواقع!

إنَّ عبادة الطواغيت عظيمة التكاليف في النفس والعِرْض والمال، ومهما تكن تكاليف العبودية لله، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة، فضلًا على وزنها في ميزان الله[٢٣].

إنَّ الدينونة لله تُحرِّر البشر من الدينونة لغيره، وتُخْرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تُحقَّق للإنسان كرامته الحقيقية، وحريته الحقيقية، هذه الحرية وتلك التي يستحيل ضمانهما في ظلِّ أي نظام آخر غير النظام الإسلامي، يَدِين فيه الناس بعضهم لبعضٍ بالعبودية في صورةٍ من صورها الكثيرة؛ سواء عبودية الاعتقاد، أو عبودية الشعائر، أو عبودية الشرائع، فكلُّها عبودية، وبعضها مثل بعضٍ تخضع الرقاب لغير الله بإخضاعها للتلقِّي بأي شأنٍ من شؤون الحياة لغير الله.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متدينين، فلا بد للناس من دينونة، والذين لا يدينون لله وحده، يقعون من فَوْرهم في شرِّ ألوان العبودية لغير الله في كل جانبٍ من جوانب الحياة.

إنَّهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حدودٍ ولا ضابطٍ، ومن ثَم يفقدون خاصتهم الآدمية، ويندرجون في عالم البهيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾[محمد:١٢]، ولا يخسر الإنسان شيئًا كأن يخسر آدميَّته، ويندرج في عالم البهيمة، وهذا هو الذي يقع حتمًا بمجرد التخلُّص من الدينونة لله وحده، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة.

ثم هم يقعون فرائس لألوانٍ من العبودية للعبيد، يقعون في شرِّ ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وَفْق شرائع من عند

(٢٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣/١٣١٩، ١٣٢٠)، الطبعة ١٤٢٣/٣١هـ. دار الشروق، بيروت

أنفسهم لا ضابط لها، ولا هدف إلا حماية مصالح المُشرِّعين أنفسهم -سواء تمثَّل هؤلاء المُشرِّعون في فردٍ حاكمٍ، أو في طبقةٍ حاكمةٍ، أو في جنسٍ حاكمٍ- فالنظرة على المستوى الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حُكْمٍ بشريٍّ لا يستمدُّ من الله وحده، ولا يتقيَّد بشريعة الله لا يتعدَّاها.

إنَّ الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصوُّر معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي، والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورًا منها، وتمثل أوهام العوام المختلفة صورًا منها، وتقدم فيها النُّذور والأضاحي من الأموال، وأحيانًا من الأولاد تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصوُّر المنحرف، ويعيش الناس معها في رعبٍ من الأرباب الوهمية المختلفة، ومن السَّدَنة والكهنة المُتَّصلين بهذه الأرباب، ومن السَّحَرة المتصلين بالجنِّ والعفاريت، ومن المشايخ والقدِّيسين أصحاب الأسرار، ومن... ومن... من الأوهام التي ما يزال الناس منها في رعبٍ، وفي خوفٍ، وفي تقرُّبٍ، وفي رجاءٍ، حتى تتقطع أعناقهم، وتتوزَّع جهودهم، وتتبدَّد طاقاتهم في مثل هذا الهُراء!

أخيرًا، تجيء تكاليف العبودية لحاكمي التشريع البشرية، وما من أضحيةٍ يقدمها عابد الله لله، ويقدم الذين يَدينون لغير الله أضعافًا للأرباب الحاكمة من الأموال والأنفس والأعراض، تقام أصنام من الوطن، من القوم، من الجنس، ومن الطبقة، ومن الإنتاج، ومن غيرها من شتَّى الأصنام والأرباب، وتدق عليها الطبول، وتنصب لها الرايات، ويُدْعى عُبَّاد الأصنام إلى بذل الأنفس والأموال لها بغير تردد، وإلا فالتردد هو الخيانة، وهو العار، وحتى حين يتعارض العرض مع متطلبات هذه الأصنام، فإن العرض هو الذي يضحى، ويكون هذا هو الشرف الذي يُرَاق على جوانبه الدم كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحُكَّام.

إنَّ كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل لله ليعبد الله وحده في الأرض، ويتحرَّر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان، إنَّ كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليَبذل مثلها وأكثر مَن يدينون لغير الله، والذين يخشون الألم والعذاب والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا جاهدوا في سبيل الله، عليهم أن يتأملوا ماذا تُكلِّفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض.

إنَّ تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله، وفوق كل ذلك كله الذل والدنس والعار!

وهناك ظاهرة واضحة متكررة، وهي أنه

كلما قام عبدٌ من عبيد الله ليقيم من نفسه طاغوتًا يُعبَّد الناس لشخصه من دون الله، احتاج هذا الطاغوت كي يعبد -أي: يُطَاع ويُتَّبع- إلى أن يسخر كل القوى والطاقات؛ أولًا: لحماية شخصه. وثانيًا: لتأليه ذاته، واحتاج إلى حواشٍ وذيولٍ وأجهزةٍ وأبواقٍ تُسبِّح بحمده، وترتل ذِكْره، وتنفخ في صورته العبدية الهزيلة لتتضخَّم وتشغل مكان الألوهية العظيمة! وألا تكُفَّ لحظةً عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة، وإطلاق الترانيم والتراتيل حولها، وحشد الجموع بشتَّى الوسائل للتسبيح باسمها، وإقامة طقوس العبادة لها! هو جهد ناصب لا يفرغ أبدًا؛ لأن الصورة العبدية الهزيلة التي ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل، وما تني تحتاج كَرَّة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديدٍ! في هذا الجهد الناصب تُصرَف طاقات وأموال -وأرواح أحيانًا وأعراض- لو أُنْفق بعضها في عمارة الأرض والإنتاج المثمر لترقية الحياة البشرية وإغنائها، لَعَاد على البشرية بالخير الوفير، ولكن هذه الطاقات والأموال -والأرواح أحيانًا والأعراض- لا تتَّفق في هذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لا يدينون لله وحده، وإنما يدينون للطواغيت من دونه.

ومن هذه اللَّمحة ينكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جرَّاء تنكُّبها عن الدينونة لله وحده، وعبادة غيره من دونه، وذلك فوق خسارتهم في الأرواح والأعراض والقيم والأخلاق، وفوقه الذل والدنس والعار! وليس هذا في نظامٍ أرضيٍّ دون نظامٍ وإن اختلفت الأوضاع، واختلفت ألوان التضحيات. ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده، فأتاحوا النفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته، وقد وقعوا في النهاية في شِقْوة العبودية لغيره، العبودية التي تأكل إنسانيَّتهم وكرامتهم وحريتهم، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم، والتي ظنوا في بعضها أنها تكفُل لهم الإنسانية والحرية والكرامة، وفي كل حالةٍ، وفي كل وضعٍ، وفي كل نظامٍ دان البشر فيه للبشر، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة، دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالٍ، إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن لله وحده، تكن لغير الله. والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارًا كِرَامًا شُرفاء أعلياء، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية...<[٢٤].

ولا يسعني في التعليق على هذا البيان النير لخطر الطاغوت والعبودية له، في شتى صورها إلا أن أقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[ق: ٣٧].

(٢٤) في ظلال القرآن (٣/١٣١٩، ٤/١٩٣٩ - ١٩٤٣)، عند الكلام على سورة (هود)، ويجدر الرجوع إليه

مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ

د هشام عقدة

هــذه الآية الكريمة من الموازين القرآنية المهمة في اتخــاذ المواقف مــن الآخرين إذا صــدر منهم مخالفة، أو قعود عن أمر، أو خطأ في اجتهاد، ونحو ذلك من الأمور، فإنهم إن كانوا محســنين، فما إلى لومهم أو عقابهم[1].

وقد جاء هذا النص القرآني في سياق قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

قــال ابن كثــير رحمه الله: «ثــم ردَّ الله تعالى الملامة على الذين يستأذنونك في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النســاء الخوالف في الرحــال[2]، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾[3]، والآية تشير الى عدد من المعاني العظيمة وهي:

١- فهــذا أول المعاني التي يُومــئ إليها قوله تعــالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، وهو أنَّ

(١) تفسير ابن كثير [التوبة: ٩٣].

(٢) سورة التوبة: ٩٣

(٣) تفسير ابن كثير [التوبة: ٩٣].

من تخلَّف عن أمرٍ اضطرارًا، أو لعذرٍ وهو في نفسه محسن ناصح لله ورسوله، صادق النية والعزيمة على فِعْل الأمر لولا الضرورة التي حالت بينه وبينه، ولم يعمد إلى تثبيط غيره، ولم يطمع في مشاركة غيره له في هذا التخلف وإقراره عليه، فهذا لا سبيل إلى لومه، والحرج عنه مرفوع، ولذلك يُتَسامح معه ومع أمثاله.

قال ابن كثير رحمه الله: «بيَّن تعالى الأعذار التي لا حرج على مَن قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازمٌ للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارضٌ بسبب مرضٍ عنَّ له في بدنه، شَغَله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرجٌ إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُثبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[٤].

وفي (الصحيحين)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنَّ بالمدينة أقوامًا، ما قطعتم واديًا، ولا سِرْتم مسيرًا إلا وهم معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر[٥].

٢ - ومن المعاني أيضًا التي فهمها السلف من هذه الآية: التفريق بين المسيء المعترف بذنبه[٦]، المقر بالإساءة، المشفق منها، والمسيء المستهين بإساءته، أو غير المقرِّ بها.

قال الأوزاعي رحمه الله: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر مَن حضر، ألستم مُقرِّين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنَّا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾، اللَّهمَّ وقد أقررنا بالإساءة، فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه، ورفعوا أيديهم فسُقوا[٦].

٣ - واستنبط القاضي ابن العربي رحمه الله من هذه الآية قاعدةً، فقال: «وهذا عموم مُمهِّد في الشريعة، أصل في رفع العقاب عن كل محسن»[٧].

من تخلَّف عن أمرٍ اضطرارًا، أو لعذرٍ وهو في نفسه محسن ناصح لله ورسوله، صادق النية والعزيمة على فِعْل الأمر لولا الضرورة التي حالت بينه وبينه، ولم يعمد إلى تثبيط غيره، ولم يطمع في مشاركة غيره له في هذا التخلف وإقراره عليه، فهذا لا سبيل إلى لومه، والحرج عنه مرفوع، ولذلك يُتَسامح معه ومع أمثاله

٤ - كما دلَّت هذه الآية على أن مَن قام بعمل ضروري للمسلمين وقت تخلي الآخرين عنه، أو اعتذارهم عن القيام به؛ لعدم قدرةٍ أو نحوه، فقام به مع نقصٍ في الجودة، أو وقوع خطأ منه أو زلة، فلا

(٤) تفسير ابن كثير للآية (٩) من سورة التوبة: ٩٣.

(٥) فتح الباري (٧/٧٣٢)، ومسلم (١٩١١)، وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/١٨٦٣) الحديث مرسلًا عن الحسن، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلَّفتم بالمدينة أقوامًا، ما أنفقتم من نفقةٍ، ولا قطعتم واديًا، ولا نلتم من عدوٍّ نيلًا، إلا وقد شركوكم في الأجر»، ثم قرأ: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه}، الآية.

(٦) الأذكار النووي ص٣٧.

(٧) أحكام القرآن، لابن العربي (٢/٩٩٥).

أصل التعامل مع أهل الإحسان: هو ترجيحهم على غيرهم ممَّن لا إحسان لهم، أو ممن تكون درجتهم في الإحسان أقل، في الإمارات والتوليات إن تساووا في الشروط الأخرى، وأنهم إن كانت منهم هفوة، لم يعاقبوا

ينبغي أن تناله سهام النقد بألسنة حداد، ودون رحمة أو تقدير لإحسانه، وهذا كما نرى في كثير من الأوقات حين تكاد تتعطَّل شعيرة من شعائر الإسلام؛ كالجمعة وغيرها، فيغيب الإمام -مثلًا- عن خطبة الجمعة، ويعتذر الجميع عن القيام بها، فيقوم رجل فيصعد المنبر في وقت أحجم فيه الجميع، وهو في ذلك محسن بلا شك فإذا به يُفَاجأ بعد الخطبة بتوجيهات مكثفة من الجميع واستدراكات، والإشارة إلى هفوات وقعت في الخطبة دون شكر له أو تقدير على تحمُّله المسئولية التي كان لا بد أن يتحملها أحدهم، فأين كانت قدراتهم وعلمهم وألسنتهم وقت الورطة؟!

أقلُّوا عليهم من اللوم لا أبَا لأَبِيكم= أو سُدُّوا من الخللِ مثلَ الذي سدُّوَا[8]

٥- واستنبط الرازي منها أصل براءة الذمة، فقال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: هذا بعمومه يقتضي أن الأصل في حال كل مسلم براءة الذمة، وعدم توجُّه مطالبة الغير عليه في نفسه وماله، فيدل على أن الأصل في نفسه حرمة القتل إلا لدليلٍ منفصلٍ، والأصل في ماله حرمة الأخذ إلا لدليلٍ منفصلٍ، وألَّا يتوجَّه إليه شيء من التكاليف إلا لدليلٍ منفصلٍ، فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلًا معتبرًا في الشريعة في تقرير أن الأصل براءة الذمة[9].

٦- ومن مكملات معنى هذه الآية في ميزانها هذا: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٤]، أي أن نعترف بما لهم من رصيدٍ خيريٍّ قدَّموه يستحقون عليه الشكر والعرفان منَّا؛ إذ «لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس»، كما في الحديث الصحيح[10].

وكذلك من مكملاتها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وأحد معانيها: الإقرار بفضل مَن حاز سبب فضلٍ، من علم أو جهادٍ أو إنفاقٍ أو سابقةٍ، والتعامل معه باحترامه، وتقديمه بمقدار فضله[11].

وتجتمع كل هذه المعاني المتقاربة لتقرِّر أن أصل التعامل مع أهل الإحسان: هو ترجيحهم على غيرهم ممَّن لا إحسان لهم، أو ممن تكون درجتهم في الإحسان أقل، في الإمارات والتوليات إن تساووا في الشروط الأخرى، وأنهم إن كانت منهم هفوة، لم يعاقبوا[12]، وإن وقعوا في تقصيرٍ أو إبطاءٍ، لم يعاتبوا إلا بإيماءٍ ربما، وأمثال ذلك، وبهذا يفتي مفتي الدعوة، ويقضي حاكم المحكمة الدعوية، وهو سلوك القائد معهم أيضًا[13]، والله تعالى أعلم.

---

(٨) وفي الحديث الشريف: «والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران: أجر القراءة، وأجر المشقة»، رواه البخاري (٢٤٤)، ومسلم (٤٩٣٧)، واللفظ له.

(٩) تفسير الرازي (١٢٨/١٦).

(١٠) صحيح الجامع الصغير (٧٧١٩).

(١١) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية، للشيخ محمد أحمد الراشد (٢٩٦/١، ٢٩٧).

(١٢) وفي الحديث: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود»، صحيح الجامع الصغير (١١٥٨).

(١٣) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية، للشيخ محمد أحمد الراشد (٢٩٦/١، ٢٩٧).

صناعة الربانية

د. محمد يسري إبراهيم

أثبتت الوقائع والتجارب القديمة والمعاصرة أن حاجة طلبة العلم والدعـــاة إلى التربية والتزكية والربانية في الأخلاق والســـلوك هي حاجة ماسَّة، ولا يعوِّض عنهـــا عمل علمـــي، ولا دعوي، ولا مؤسسي!

ومـــا منيت الدعـــوات المعـــاصرة بكثير من الإخفاقات إلا من ضعـــف التزكية لدى القيادات والأفراد!

فإن قيل: فما هو الحل لهذه المشكلة الكبرى والداء الدوي؟

فالجواب:

إن الحل مركب مـــن أمور متعددة، وليس من أمـــر واحد، وأحيانًـــا قد يعبر عن العـــلاج بعنوان عريض يتضمن مركبات متعددة، وســـوف نسوق الجواب مجملًا ومفصلًا لأهمية هذا الأمر.

فأما الجواب المجمل فهـــو: اعتماد وتفعيل

التربية أو التزكية هي التي تحول العقيدة المستكنَّة في الضمائر إلى عمل وسلوك في الواقع.
والربانية صِنْو التربية في إصلاح الباطن والظاهر!

مبدأ التزكية والربانية.

والتزكية مهمة الأنبياء وورثتهم من العلماء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

والتزكية هي المصطلح القرآني للتربية، قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩].

وفي الحديث: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا**»(١).

فالتربية أو التزكية هي التي تحول العقيدة المستكنَّة في الضمائر إلى عمل وسلوك في الواقع.

والربانية صِنْو التربية في إصلاح الباطن والظاهر!

فهي تحقق بتلك الصلة الوثيقة بالله أداءً للفرض، واستكثارًا من النفل، واجتنابًا للمحارم، واستدامةً للذكر، وعنايةً بالشكر، وتحليًا بالصبر، واتشاحًا باليقين.

كما أنها تعني تلذذًا بالقرآن والقيام، وانتفاعًا بفرض ونفل الصيام، وتنعمًا بالعبادات وسائر القربات.

وسياج الربانية يقيم حاجزًا في القلب بين الحق والباطل، وحائلًا بين العبد ومضلات الفتن، ويضبط القلوب والسلوك والجوارح على رعاية السنن، والهدي الظاهر، وحسن السمت، وملازمة الأدب على كل حالٍ.

وتلكم الربانية درة مفقودة، وغاية منشودة، وصناعتها والتهيئة لها تقوم تفصيلًا على ركائز عشرة، بيانها باختصار فيما يلي:

١- إيمان كإيمان الصحابة والسلف (رضي الله عنهم):

قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة:١٣٧]، فالعقيدة الربانية هي أول ما يدعى إليه الناس؛ ليتحرروا من عبادة العبيد إلى عبادة الرب المجيد.

وهي عقيدة شاملة فاعلة، تعنى بعبادة القلب والقالب، وكما تعنى العقيدة الربانية باستقامة الظاهر وإخلاص الباطن، فإنها تملأ القلب يقينًا وثباتًا، وتوكلًا وتسليمًا، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، وتورث أهلها جهادًا وعزة واستعلاء!

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ [الأحزاب:٢٣]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٢- عبادة ربانية:

احتفاءً بالفرائض، واحتفالًا بالنوافل؛ إذ أسُّ الربانية عبادة رب البرية، والتقرب إليه بالشعائر التعبدية، إخلاصًا لله واتباعًا لرسول الله ﷺ، ومسارعة ومسابقة في طاعة الله، وجدًّا واجتهادًا بالليل والنهار، مع الدوام والاستمرار، ومشاركة في كل باب من الخير بسهم، ودخولًا في السلم كافة.

وحرصًا على تدارك ما فات من نوافل العبادات، وحذرًا من التفريط في الطاعات، والانقطاع عن

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم.

والرباني يتحرز ممَّا لا يتحرز منه غيره؛ لأنه في موضع القدوة والأسوة. والرباني القدوة ينتفع به موافقه في الدين والسنة، ومخالفه فيهما على حدٍّ سواء!

وما ذاك إلا لأن مقاله ترجم عنه حاله، وحاله ظاهر في مقاله وفعاله!

الصالحات، ورجاءً في القبول، وخوفًا من الرد، واستغفارًا من التقصير، وسؤالًا للإعانة على الذكر والشكر وحسن العبادة، ورغبة إلى الله في البلاغ إلى الطاعة الآتية، في عفوٍ وعافية، وحذرٍ من الأمن من مكر الله.

٣- موافقة القول للعمل، والظاهر للباطن:

فالربانية استقامة على أمر الله، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:١١٢].

والربانية: انسجام تام بين الفعل والكلام.

قال سبحانه على لسان نبيٍّ كريم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود:٨٨].

وقال أهل العلم: «من لم ينفعك لحظه، لم ينفعك وعظه»!

والرباني يتحرز مَّما لا يتحرز منه غيره؛ لأنه في موضع القدوة والأسوة.

والرباني القدوة ينتفع به موافقه في الدين والسنة، ومخالفه فيهما على حدٍّ سواء!

وما ذاك إلا لأن مقاله ترجم عنه حاله، وحاله ظاهر في مقاله وفعاله! فقوله وعمله وحاله قد بلغت في الحسن غاية، وأوفت على النهاية.

وأَوْلَى الناس بالربانية رسل الله، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

٤- تقديم وتعظيم أعمال القلوب:

أعمال القلوب من الإخلاص والتوحيد، والتقوى واليقين، والتأله لله والتعظيم، والانقياد والتسليم، والمحبة والتذلل، والصبر والاستعانة، والتوبة والإنابة، والرغبة والرهبة، والخشوع والخضوع، والرضا والتوكل- هي من أصل الدين، وأساس الإيمان، وعنها تصدر طاعات الأبدان!

وبالجملة؛ فإن عبادات القلوب هي جوهر كل خيرٍ، وعنها يصدر كل برٍّ!

فهي أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهي تسبق أعمال الجوارح، فعبودية القلب أعظم وأدوم وألزم، والثواب عليها وبها أفضل وأكمل، وإنما تتعاظم أجور الأعمال بحسَب ما يقوم بالقلوب من أحوال!

وموبقات ومعاصي القلوب أخطر الأدواء والذنوب!

ولا نجاة غدًا إلا لمَن أتى الله بقلب سليم، وذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون!

٥- الأخلاق الربانية:

من معالم الربانية التحقق بالأخلاق والآداب النبوية، إذ هي ثمرة مباركة لشجرة الإيمان الطيبة، وهي فرع مباشر لأصل ظاهر، وهو العبودية لرب البرية.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[القلم:٤].

وفي الحديث: «إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالاقْتِصَادَ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(٢).

والأخلاق الربانية أعم من أن تكون أخلاقًا

(٢) أخرجه مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو(رضي الله عنهما).

فردية؛ كالحياء والتواضع.

أو أخلاقًا جماعية؛ كالعدل والإحسان.

أو أخلاقًا اجتماعية؛ كبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام.

أو أخلاقًا سياسية؛ كالشورى، ورعاية حقوق الإنسان.

أو أخلاقًا اقتصادية؛ كالأمانة، والصدق.

والأخلاق الربانية كما تشمل البشر تشمل الكائنات جميعًا!

٦- التجافي عن دار الغرور:

الربانية زهد في الدنيا ومتاعها، ورغبة في الآخرة ونعيمها، وترك الاغترار بدار الغرور!

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

إنها إيثار الباقية على الفانية، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧].

إن الربانية تزود من خير زاد، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وهي قناعة وكفاف، وفي الحديث: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»(٣).

وهي جعل الهموم همًّا واحدًا، همَّ الآخرة، وفي الحديث: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ...»(٤).

٧- محبة السلف الصالح:

دين الربانيين محبة أصحاب نبينا أجمعين، والاقتداء بالسابقين الأولين، ومن تبعهم بإحسان من خير قرون المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

فلا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

ومحبة الذرية الأطهار، أشرف بيت نسبًا، وأكرمهم حسبًا، فالربانيون بمحبة أهل بيت نبيهم ﷺ يتقربون، وبحمايتهم والذب عنهم يتديَّنون، وبوصية رسول الله بمودتهم يعملون.

يرفعون محسنهم، ويقولون لمسيئهم بقول نبيهم ﷺ: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(٥)، ومن جمع بين طيب النسب وحسن العمل، فقد جمع الخيرين.

٨- الدعوة الربانية:

فهي دعوة إلى الله لا إلى سواه، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، والذي أمر بها هو الله، ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الحج:٦٧].

وموضوعها ومنهجها من عند الله، والأجر عليها يطلب من الله وحده، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ [هود:٢٩].

وهي دعوة ربانية في وسائلها وأساليبها لا تتوسل إلا بالمشروع، وتتعامل مع السنن الجارية في الإصلاح، فتسايرها ولا تعاندها، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٩٨)، وأبو داود (٤٧٧٦) من حديث عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

العلم الرباني هو سبيل الوحدة والائتلاف، وهو نبراس الدعوة والجهاد، يورث صاحبه ثباتًا على الحق، وسهولة في الرجوع عن الخطأ، وتحليًا بالزهد، وإيثارًا للآخرة، وانصرافًا إلى العلم النافع، وتلقيًا عن الأكابر، وتدرجًا في التعلم، عنايةً بعلوم الوحي ومقاصده، وسنن التغيير ومآلاته

وهي ربانية الآثار على الداعية، فتضبط الاجتهادات، وتخليه عن الآفات، وتحليه بجميل السمات.

٩- ربانية الاتباع:

كما قامت الربانية على توحيد المعبود؛ فقد قامت على توحيد المتبوع، وهو النبي ﷺ، فالرباني من صدَّقه فيما أخبر، وأطاعه فيما أمر، واجتنب ما عنه نهى وزجر، ولم يعارض أمره ولا نهيه بترخص جافٍ، ولا بتشدد غالٍ.

والاتباع كما يكون للنبي المرسل، يكون للكتاب المنزل، وللرعيل الأول.

والرباني صاحب منهج الاتباع أحرص الناس على الألفة والاجتماع، فهو يجمع بين الاتباع بمعناه العلمي والعملي، وهو أقدر الخَلق على الجمع والموازنة بين الواجبين حال السعة والاختيار، وعند التدافع والاضطرار، وترجيح الأولى بالفتوى نظرًا للمسلمين، وتحقيقًا لمصلحة إعزاز الدين، بوسطية شرعية محمودة.

١٠- ربانية التعليم والعمل:

علم الربانيين أعظم من أن يُحاط بفضله؛ إذ تعلمه لله خشية، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وطلبه لله عبادة، ومذاكرته تسبيح، وتعليمه قربة، ولا يكون العبد ربانيًّا حتى يعلم بصغار العلم قبل كباره!

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

والعلم الرباني هو سبيل الوحدة والائتلاف، وهو نبراس الدعوة والجهاد، يورث صاحبه ثباتًا على الحق، وسهولة في الرجوع عن الخطأ، وتحليًا بالزهد، وإيثارًا للآخرة، وانصرافًا إلى العلم النافع، وتلقيًا عن الأكابر، وتدرجًا في التعلم، عنايةً بعلوم الوحي ومقاصده، وسنن التغيير ومآلاته.

مع الفتيا في النوازل، والبصيرة بالواقع، وإدراك علاقاته، واستيعاب أحداثه، واستنباط أحكامه، وإفاضة للبلاغ المبين؛ عملًا بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستبانةً لسبل المجرمين، وتعرية لمناهج المنافقين، وجهادًا لأعداء الأمة والدين، وتحريرًا للقدس والأقصى ببذل النفس والنفيس؛ فإما النصر، وإما الشهادة!

فاللهم هَبْ علماءنا ودعاتنا ربانية لا تخلُّ بواجبي البلاغ المبين، والسعي للتحرير والتمكين، ولا تترك إنكار منكرات القبور، ولا القصور، ولا تهمل تربية النفس، فتصل القلب بالرب فيخشع، وتحرك الجوارح بالفرض والنفل فتلين وتخضع، وتقف بالعبد عند حدود ما أنزل الله فيطيع ويسمع!

وآخر دعوانا ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

الشيخ حسنين مخلوف .. مواقف رائدة في نصرة الدين وأهله

عبد الآخر حماد الغنيمي

الشيخ حسنين محمد حسنين مخلوف (١٣٠٧ - ١٤١٠هـ) (١٨٩٠- ١٩٩٠م)، هو عميد الإفتاء في مصر في العصر الحديث، وقد تولى منصب الإفتاء مرتين؛ الأولى: من يناير سنة ١٩٤٦م، وحتى مايو سنة ١٩٥٠م. والثانية: من مارس ١٩٥٢ وحتى ديسمبر ١٩٥٤م.

وكان رحمه الله عضوًا في هيئة كبار العلماء بالأزهر، كما تولَّى رئاسة لجنة الفتوى بالأزهر بعد تَرْكه لمنصب الإفتاء. وقد كان له رحمه الله من المواقف الطيبة في الصَّدْع بالحق، والذب عن

تنبَّه إلى خطورة تلك الدعوة منذ بداياتها، فلم ينخدع بمعسول أقوال القمي ومن معه، وعرف أن الهدف الحقيقي من ورائها هو أن يكسب التشيُّع مكانًا في مصر، وأن يقدم الأزهر التنازل تلو التنازل دون أن يقدم مراجع الشيعة شيئًا في مقابل ذلك

صحيح الدين ما يستحق أن يُذكر ويُعرَّف به مَن لم يعاصروا الشيخ، وربما لم يسمعوا عنه.

فمن تلك المواقف:

١-تصدِّيه للمتساهلين في الفتوى: فقد كان الشيخ رحمه الله كثيرًا ما يتتبع بعض ما يُذَاع أو يُنشَر من الآراء المتساهلة التي تصدر عن بعض المنتسبين للعلم الشرعي ممن يبحثون عن الآراء الشاذة المخالفة للنصوص الشرعية.

ومن ذلك: تصدِّيه لتصريحات نشرتها مجلة (الجيل الجديد) في ٢٥ فبراير ١٩٥٧م، على لسان وزير الأوقاف في تلك الفترة (الشيخ أحمد حسن الباقوري)، حيث أفتى الشيخ الباقوري رحمه الله بأنه يجوز للخاطب أن يختلط بمخطوبته قبل عقد الزواج، فيُقبِّلها ويُعانقها ليتأكد من صلاحيتها له، وليأمن العيوب الخفية، كما قال: إنه يوافق على إنشاء مسجد خاص بالسيدات، وإنه سيسمح لهنَّ بالصلاة فيه على حالتهنَّ التي يرتدن بها المجتمعات، فيُصلِّين حاسرات الرؤوس، كاشفات الأذرع.

ولمَّا كانت مثل تلك الأقوال منافيةً لنصوص الكتاب والسنة، ولم يقل بها أحدٌ من فقهاء الأمة الثقات، فقد انبَرى الشيخ حسنين مخلوف -والذي كان في ذلك الوقت رئيسًا للجنة الفتوى- للرد عليها، فأصدر بيانًا نشرته مجلة (لواء الإسلام)، عدد رمضان ١٣٧٦هـ/أبريل ١٩٥٧م، ذكر فيه أن من الناس من لم يفقه المعنى الصحيح ليسر الإسلام، فراح يتحدث عن سماحة الإسلام بما يقضي بأنها مجاراة الشهوات، وإقرار العادات، مع أن قليلًا من الفهم في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله يدل دلالةً ظاهرةً على أنهما حاربا الشهوات الباغية، والعادات الذميمة التي يأباها الخُلُق والفضيلة والمصلحة الظاهرة. ثم ذكر الشيخ رحمه الله أن ما نُشِرَ على لسان الباقوري من إباحة التقبيل والعناق للمخطوبة قبل العقد أو الزفاف هو قول باطل يردُّه كتاب الله، وسنة رسوله، ومذاهب الأئمة قاطبة؛ إذ لم يُنقَل عن أحدٍ من المسلمين إجازته، فضلًا عن أنه إباحية فاحشة، تنكرها الأخلاق والعادات الفاضلة. ثم بيَّن أنه لا يُبَاح للمرأة أن تكشف وهي تصلي إلا الوجه والكفين؛ سواء أكانت صلاتها في مخدعها، أم في غيره، كما ورد في السنة المأثورة، وإليه ذهب جمهور الأئمة. وأمَّا حكم إنشاء مسجد خاص بالنساء فقد ذكر الشيخ حسنين مخلوف أنه بدعة لم تُعهَد في عهد النبوة، ولا في القرون الثلاثة الأولى التي هي أفضل القرون، كما جاء في الحديث، ثم ختم الشيخ بيانه بقوله: «وممَّا يجب التنبيه إليه أن الإفتاء في الدين مقام خطير، لا يتصدى له إلا فقيه ثقة أمين على الأحكام، ولا يجوز الإفتاء بما يخالف كتاب الله تعالى، وسنة

رسوله ﷺ، ويجرُّ إلى مفسدة ظاهرة من الشاذِّ من الأقوال، كما لا يجوز لعالِمٍ من علماء المسلمين أن يُذيع باسم الدين آراء ليس لها وزن عند جمهور أئمة المسلمين».

٢- موقفه من التقارب مع الشيعة: ونعني بذلك موقفه مما سُمِّي بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وهي هيئة تأسَّست في القاهرة عام (١٣٦٨هـ/١٩٤٧م)، وكان هدفها المُعلَن هو التقريب بين الطوائف الإسلامية، وبخاصة بين السنة والشيعة، وقد كان الساعي في تأسيسها شيخ شيعي أقام في مصر زمنًا، وهو تقي الدين القمي، وقد انضم إليها جماعة من علماء الأزهر المعروفين في ذلك الوقت؛ منهم: الشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الوهاب خلاف، والشيخ عبدالمجيد سليم، وغيرهم، ثم إن من أولئك الشيوخ مَن تكشفت له بعد ذلك حقيقة تلك الدعوة، وأنها لا تزيد على كونها محاولةً لنشر التشيع في مصر، فخرج من تلك الجماعة، وراح يحذر منها؛ مثل: الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي الذي كان عضوًا بهيئة كبار العلماء بالأزهر؛ حيث كتب في هذا المعنى مقالًا نُشِرَ بمجلة (الأزهر)، عدد ربيع الأول ١٣٧٢هـ/نوفمبر ١٩٥٢م.

أمَّا الشيخ حسنين مخلوف، فقد تنبَّه إلى خطورة تلك الدعوة منذ بداياتها، فلم ينخدع بمعسول أقوال القمي ومن معه، وعرف أن الهدف الحقيقي من ورائها هو أن يكسب التشيُّع مكانًا في مصر، وأن يقدم الأزهر التنازل تلو التنازل دون أن يقدم مراجع الشيعة شيئًا في مقابل ذلك، ومما يدل على ذلك ما نشره على لسانه الدكتور ناصر الفقاري في كتابه: (مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة) (٢/ ٣٥٨)، حيث قال الشيخ رحمه الله:

«بدأت فكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة حين كان بمصر رجل شيعي اسمه (محمد القمي)، وسعى في تكوين جماعةٍ سمَّاها جماعة التقريب، وأصدر مجلة (التقريب)، وكتب فيها بعض الناس، وأنا لم أكن موافقًا، لا على التقريب، ولا على المجلة؛ ولذلك لم أكتب في المجلة، ولم أجتمع مع جماعة التقريب في مسجدٍ ما. وقد سعى القمي لدى (شلتوت) في أن يقرر تدريس مادة الفقه الشيعي الإمامي في الأزهر أُسوةً بالمذاهب الأربعة التي تدرس فيه، وأنا حين علمت بهذا السعي، كتبت كلمةً ضد هذه الفكرة... وقد أبلغت هذا الرأي لأهل الحل والعقد في مصر إذ ذاك، وأصدروا الأمر لشيخ الأزهر بأنه لا يجوز تدريس هذا الفقه، ولم ينفذ، والحمد لله».

ومن مواقف الشيخ المشهودة في هذا الصدد: أنه أرسل للشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله رسالةً يحذره فيها من الانخداع بتلك الدعوة، وكان سبب تلك الرسالة أن الشيخ الشعراوي كان قد الْتقَى حين كان وزيرًا للأوقاف في أواخر السبعينيات من القرن الميلادي الماضي بالشيخ القمي، وأبدى موافقته له في بعض ما يدعو إليه، وقد ذكر وزير الأوقاف السابق الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله في كتابه (الشيعة.. المهدي.. الدروز) (ص١٤٣) أن سبب الْتقَاء الشعراوي بالقمي أن الشعراوي كان قد ألقى خطبةً من على

منبر الأزهر، رأى البعض أن فيها مساسًا بالشيعة وبالقمي الذي كان له -كما يقول الدكتور النمر- وَضْعٌ اجتماعيٌّ في مصر، وله صلات قوية بكبار رجال المجتمع، وبعض الهيئات فيها، فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة العلاقات السياسية بين مصر وإيران في تلك الفترة التي سبقت ثورة الخميني؛ إذ كانت علاقة الرئيس السادات بشاه إيران على أوثق ما تكون العلاقة، فإننا يمكن أن نستشَّف من ذلك أن لقاء الشعراوي بالقمي كان وراءه ضغوط سياسية.

لكنَّ ذلك الوضع السياسي المشار إليه لم يمنع الشيخ حسنين مخلوف من أن يوجه رسالته تلك للشيخ الشعراوي ناصحًا وموجهًا وصادعًا بالحق، ومما جاء في تلك الرسالة بحسَب ما نشرته مجلة (الاعتصام)، عدد جمادى الأولى ١٣٩٧هـ: «... فقد هال الناس ما نشرته الصحف عمَّا دار بينكم وبين داعية الشيعة الإمامية من الحديث والآراء، ومعلوم ما أجمع عليه أهل السنة بشأن الإمامة، وأنَّ ما ذهب إليه الشيعة الإمامية من أن الإمامة بعد الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب، ثم لمَن يليه إلى الإمام الثاني عشر، باطلٌ من القول وزور، كما أنه معلوم لفضيلتكم ما قام به هذا الداعية من إنشاء (جماعة التقريب)، وإنشاء مجلة لها بمصر، وانضواء الشيخ شلتوت لها، مع نفرٍ من المنحرفين عن أهل السنة والجماعة، وما حرص عليه من وجوب تدريس مذهب الشيعة الإمامية بالأزهر أسوةً بالمذاهب الأربعة... ومن الخير لكم -بل من الواجب عليكم بعد كل هذا- أن تبين للناس رأيكم في التشيع عامة، والتشيع الإمامي خاصة، وأنكم لا زلتم نصير أهل السنة والجماعة قولًا وعملًا، والله يوفقك، وأخشى ما أخشاه أن يستغل الشيعة الإمامية موقفكم للدعوة إلى نِحْلتهم، ويقولوا: إن إمامًا من أئمة المسلمين قد انضم الى مذهبهم».

٣- وأخيرًا، نختم بهذا الموقف الخطير للشيخ رحمه الله الذي كان يمكن لو انكشف أن يُلحق بالغَ الضرر به وبأسرته، وهو أنه قد آوى في بيته شابًّا ممن كانت تطاردهم السلطات المصرية بسبب انتمائهم الإسلامي، كان ذلك في أيام محنة الإخوان في عام ١٩٥٤م، وكان الشيخ وقتها هو مفتي الديار المصرية، وتفصيل ذلك كما ذكرت مجلة (الدعوة) المصرية في عددها الصادر في جمادى الثانية ١٣٩٧هـ/ مايو ١٩٧٧م، أن شابًّا زَرِيَّ الهيئة، رثَّ الثياب، طَرَق باب منزل الشيخ حسنين مخلوف، وطلب مقابلته، وظن الشيخ أنه جاء يطلب صدقةً لما يبدو عليه من رثاثة الثياب، وشدة التعب، ولكن الشيخ فوجئ حين عرَّفه

وممَّا يجب التنبيه إليه أن الإفتاء في الدين مقام خطير، لا يتصدى له إلا فقيه ثقة أمين على الأحكام، ولا يجوز الإفتاء بما يخالف كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ويجرُّ إلى مفسدة ظاهرة من الشاذِّ من الأقوال، كما لا يجوز لعالِمٍ من علماء المسلمين أن يُذيع باسم الدين آراء ليس لها وزن عند جمهور أئمة المسلمين

ذلك الشاب بنفسه، وأن اسمه (محمد الصوابي الديب)، وأنه تخرج في كلية الشريعة، جامعة الأزهر، وأحد متطوعي الإخوان المسلمين في حرب فلسطين، وأنه مطلوبٌ القبض عليه بسبب انتمائه للإخوان، وأنه قد مكث أكثر من شهر هاربًا، يتخفَّى في النهار بين المقابر، وفي الليل يخرج ليقتات الطعام، ثم قال: «لقد كرهت الحياة بين الأموات، وأريد أن أعيش بين الأحياء، فهل تقبلني»، وبحسَب ما ذكرت المجلة، فإن الشيخ لمَّا سمع ذلك من الشاب، أصابه الذهول، فقد كان الإخوان في ذلك الوقت في أَوْج مِحْنتهم، وكان مَنْ يتسترَّ عليهم، يعاقب بالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة، فاستأذن الشيخ من الشاب، وذهب إلى أولاده يستشيرهم، ويبلغهم أنه يرى أن هذا الشاب صادق في قوله، ولكنه يخشى عليهم ما يمكن أن يقع عليهم في حال اكتشاف وجوده في بيتهم، فكان جوابهم بالموافقة على مساعدته وإيوائه، وبالفعل بقي هذا الشاب معهم بعد أن غيَّروا هيئته، وأطلقوا عليه اسمًا جديدًا هو: (صادق أفندي)، وعيَّنه الشيخ سكرتيرًا خاصًّا له، وخصَّص له غرفةً منفصلةً بحديقة منزله، وكان يدخل ويخرج معه على أنه سكرتيره الخاص. وفي صيف ١٩٥٥م، وبعد أن قضى ذلك الشاب ثمانية أشهرٍ مع الشيخ مخلوف، قرر أن يسافر للعمل في السعودية، وحاول الشيخ إثناءه عن ذلك خوفًا عليه، لكنه أصرَّ على السفر لكي يستريح من حالة القلق التي يعيشها، وبالفعل توجه للسفر، وأرسل الشيخ مخلوف رسالةً إلى مستشار الملك سعود ليهيئ له عملًا عند وصوله إلى هناك، ولكنه لم يصل إلى السعودية، فقد قُبض عليه من على متن الباخرة التي كان يستقلها من السويس إلى جدة، وذلك بوشايةٍ من شخصٍ عراقيٍّ كان قد وَعَده بأن يساعده في سفره، ولمَّا علم الشيخ وأولاده بذلك، هيئوا أنفسهم لِمَا يمكن أن يحدث إذا عُرف أن هذا الشاب كان مختبئًا عندهم، ومرت الأيام، ولم تداهم الشرطة منزلهم كما كانوا يتوقعون، إلى أن ذهبت زوجة ابن الشيخ مخلوف -وهي ابنة المستشار حسن الهضيبي مرشد الإخوان- لزيارة والدها في سجنه، فسألته عن (محمد الصوابي الديب)، فأخبرها أنه قد قُتِلَ جرَّاء تعرُّضه للتعذيب الشديد في السجن الحربي، وأن الذين كانوا يعذبونه لم يكونوا يسألونه إلا سؤالًا واحدًا فقط: «أنت كنت فين؟!»، فلا يجيبهم إلا بآياتٍ من القرآن، حتى كسروا عموده الفقري، وبرزت ضلوعه، وكان تمرجي السجن -أي: المُمرِّض- يخرج من مكان تعذيبه وفي يده صفيحة مملوءة بالدم.

يقول الشيخ مخلوف بحسَب ما جاء في عدد مجلة (الدعوة) المشار إليه: «لم أكن أتوقَّع أبدًا أن يتحمل الشهيد (محمد الصوابي الديب) التعذيب الذي لا يصدقه عقل من أجلي، لم أكن أتوقع أن يضحي بحياته من أجلي، حقًّا هذه هي تربية الإسلام»، رحم الله الشيخ حسنين مخلوف، وألحقنا به في الصالحين.

ندوة : المسلمون وتحولات النظام الدولي

يدير الندوة : الدكتور عبد العزيز كامل

تُرحِّب مجلة (بينات) بالسادة الأفاضل ضيوف الندوة، وهم:

١-د. عصام عبد الشافي.

أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية، رئيس أكاديمية العلاقات الدولية.

٢-د. هشام راغب.

٣-د. حسن سليمان.

٤-د. طاهر صيام.

المحـور الأول: في ندوتنا عـن (تحولات النظام الدولي وتداعياتها).

ونتناول في هذا المحـور عدة موضوعات؛ أولها:

المفهوم الذي اسـتقر عليه مصطلح النظام الدولي في العقود الأخيرة، وأثر تفرد أمريكا بقمته بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

وقد تحدث فيه الدكتور عصام عبد الشـافي قائلًا:

منذ نهايـة الحرب العالميـة الثانية ١٩٤٥ وحتـى الآن، مرَّ النظام الـدولي من حيث معيار شـكل النظام بمرحلتين: الأولى من ١٩٤٥ إلى ١٩٩١، وكان النظـام فيها ثنـائي القطبية، يقوم على وجود قطبـين: (الاتحاد السـوفيتي شرقًا، والولايات المتحدة غربًا)، لكلٍّ منهما كتلة يتحرك فيها، وتمثل عمقًا استراتيجيًّا له (الكتلة الشرقية، والكتلة الغربية)، ولكل منهما ذراع عسكري قوي يشكل أداةً للردع العسكري والأمني (حلف وارسو شرقاً وحلف الناتو غرباً)، ولكن مع سقوط سور برلين عـام ١٩٨٩، انهارت (انتهى نظام الكتلتين ، ومع انهيـار الاتحاد السـوفيتي ١٩٩١، انهار القطب الشرقي وذراعه العسكري، وأصبح النظام الدولي أحـادي القطبية، تهيمـن عليه الولايات المتحـدة الأميركيـة التي حافظت عـلى كتلتها الغربية، وَسَـعتْ لتوسـيعها، كما حافظت على ذراعها العسكري (الناتو)، وعملت على تمدُّده.

وتحـدث الدكتور (طاهر صيـام) عن تلك النقطـة فقال: مفهـوم النظام العالمـي الجديد وتحديثاته -ما بعد الحداثة- بُني على هيكل الأمم

معادلات التوازنات في النظام العالمي بقيت خاضعةً -غالبًا- لموازين القوى العسكرية حتى حقبة التسعينات وتفكك السوفيت، لكن باتت القوى الاقتصادية لها وزن أكبر خلال آخر عِقْدين، وتجلَّى ذلك في الاتحاد الأوروبي، إنما الأهم كان ظهور الصين كمنافسٍ أقوى للتفرُّد الأمريكي من خلال البوابة الاقتصادية

المتحدة التي قامت عقب شهرٍ من انتهاء الحرب العالميـة سـنة ١٩٤٥. هيكل الأمـم المتحدة وميثاقها جـاء ليُكرِّس مفهوم «نسـبية الحقيقة» في «النموذج المعرفي الغربي» المُؤسس والتي تعكس موازين القوى المادية التي تأخذ أشكال القوة والمـال والنفوذ -يعبر عنها حق فيتو الدول الخمس المنتـصرة- والتي تقدم لهـا الداروانية الاجتماعية أساسًا أخلاقيًا بقيادةٍ أنجلوساكسونية استعمارية.

لقد لاحظ هـذا النموذج المعرفي وأثره د. (عبدالوهاب المسـيري)، وربطه بفلاسفة أوروبا كفريدريك نيتشه.

هيـكل الأمم المتحدة الـذي يفرز قرارات الشرعيـة الدولية، وبالتـالي الحقائق والحقوق- بُني على توازن القوى من خـلال الدول الـ(٥) الكبرى ومجلس الأمن، فقرار غزو العراق شرعي وحق، وكذلك قرارات تقسـيم فلسطين قانونية. كل ذلك تمَّ من خلال (توازنات ومقايضات) بين الدول الكبرى في مختلف القضايا بحسب تطور

موازين القوى والاقتصاد تحت مسمى الشرعية الدولية.

وهكذا قامت -مثلاً- نماذج الضرائب والجمارك والبترودولار -الليبرالية الاقتصادية ضمن النظام العالمي- ودعاوى حقوق الإنسان كبضاعة ازدواجية تستهلكها (نسبية الحقيقة) عند الغرب.

من الواضح أن حرب أوكرانيا هزَّت هذه المعادلات التي يحاول الغرب جاهدًا التمسك بها رغم أنه تَنَكَّرَ -من خلال نسبية الحقيقة وماكينة البروبوغاندا كعادته- لقواعد السوق المفتوح وحرية حركة الأموال، أي: الليبرالية الاقتصادية التي قام عليها النظام الرأسمالي، وبالذات الأنجلوساكسوني!

معادلات التوازنات في النظام العالمي بقيت خاضعةً -غالبًا- لموازين القوى العسكرية حتى حقبة التسعينات وتفكك السوفيت، لكن باتت القوى الاقتصادية لها وزن أكبر خلال آخر عِقْدين، وتجلَّى ذلك في الاتحاد الأوروبي، إنما الأهم كان ظهور الصين كمنافسٍ أقوى للتفرُّد الأمريكي من خلال البوابة الاقتصادية.

ننتقل إلى موضوع آخر من المحور الأول يتعلق بتحولات النظام الدولي منذ بدأ، وهو تساؤل عن أسباب التراجع المتوقع لأمريكا عن التفرُّد بقطبية النظام الدولي بعد احتفاظها به لنحو ثلاثة عقود، علمًا بأن الولايات المتحدة كانت تخطط منذ عهد بوش الابن للاحتفاظ بالتفرد بزعامة القطبية الدولية لقرن قادم، من خلال (مشروع القرن الأمريكي).

وأجاب عن هذا التساؤل الدكتور عصام عبدالشافي، فقال:

لا اعتقد أن هناك تراجعًا أمريكيًّا عن التفرد بقطبية النظام الدولي، هناك تراجع في مؤشرات القوة الأميركية؛ لأن هذه المؤشرات نسبية بينها وبين غيرها من أطراف دولية، لكنها ما زالت تحافظ على تفردها على قمة النظام الدولي، أمَّا عن أسباب التراجع في مؤشرات القوة، فيمكن ردُّه إلى عدة اعتبارات؛ منها: تغير المبادئ الحاكمة للرؤساء الأمريكيين، وتنامي النزعة الانعزالية للولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠١١، وما ترتب عليها من تداعيات وانعكاسات داخلية ودولية، ومع ما أفرزته سياسات جورج بوش الابن الصدامية التدخلية، وشنه عدة حروب مباشرة وغير مباشرة تحت مظلة ما أسماه: (الحرب العالمية ضد الإرهاب)، والتي كان من شأنها زيادة معدلات الكراهية للولايات المتحدة وسياساتها، وجاءت إدارة أوباما (٢٠٠٩ - ٢٠١٦) لترفع مبدأ (القيادة من الخلف)، والذي يقوم على إشراك الحلفاء الإقليميين في إدارة الصراعات الإقليمية، ومحاولة تخفف أمريكا من أعباء هذه الصراعات، كما أطلق أوباما شعاره الرافض لفكرة (الراكبون بالمجان)، والذي يقوم على تحمُّل كل حلفاء أمريكا تكاليف حمايتهم وأمنهم واستقرارهم.

كما كان للأزمة الاقتصادية العالمية ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨، تداعياتها السلبية كذلك على توجهات الاستراتيجية الأمريكية؛ سواء فيما يتعلق بموقفها من أزمة الديون السيادية التي تعرضت لها الدول

تمتلك الصين الكثير من الإمكانيات والقدرات التي تستطيع بها أن تشكل قطباً دوليًّا بقوة، وفق موازين قوة الدول الطبيعية والبشرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والتكنولوجية

الأوروبية من ناحية، وكذلك موقفها من حركات التغيير السياسي وموجات الثورات الشعبية التي شهدتها المنطقة العربية بداية من ديسمبر ٢٠١٠، وما زالت تأثيراتها مستمرة حتى اليوم.

ثم كان لسياسات إدارة ترامب (٢٠١٧ - ٢٠٢١) ومواقفه تجاه الحلفاء الاستراتيجيين؛ سواء في أوروبا أو الشرق الأوسط، وكذلك تجاه المنظمات الدولية- انعكاساتها على القوة الأمريكية، وخاصة فيما يتعلق بمعيار ثقة الحلفاء في دورها ومكانتها، وهو ما سعى بايدن إلى تغييره، ومراجعة سياسات ترامب، وكانت أزمة أوكرانيا كاشفة لهذه المراجعات، وللتوجهات الأمريكية في ظل الإدارة الجديدة.

هل هناك أبعاد أخرى للتراجع الأمريكي؟

أضاف الدكتور طاهر صيام أبعادًا أخرى لهذا الموضوع، فقال: هناك أسباب داخلية للتراجع الغربي بوجه عام، فالجيل العظيم كما يصفونه -الذي شهد حرب فيتنام- يكاد أن ينقرض، بل انقرض جيل من السياسيين الحاذقين والعتيدين؛ مثل: ترومان وتشيرشل وديغول وكينيدي ونيكسون وشيراك وريغان وتاتشر وبريجينسكي وشولتز وجيمس بيكر ليحلَّ أمثال بوش وترامب وبايدن وبلير وكامرون وساركوزي وماكرون.

في الوقت الذي تَسَارع فيه التفكك الاجتماعي والأخلاقي، والتهاوي الديموغرافي للرجل الأبيض الذي سطره بات بوكانن مستشار نيكسون وريغان وصاحب كتاب (موت الغرب).

خارجيًّا: فشلت الولايات المتحدة حسب خطة نيكسون في استيعاب الصين وتطويعها بالطريقة الأمريكية الناعمة، والتي نجحت في اليابان من خلال أَمْرَكة طريقة حياتها ثقافيًّا واستهلاكيًّا وتفكيك هُويَّتها، والأهم فشلت أمريكا في السيطرة على الصين الصناعية من خلال البنوك ورؤوس المال، رغم نجاح نيكسون ومن بعده -إثر اتفاقية نيكسون وماوتسي تونغ- بربط المصانع واليد العاملة الصينية بالشركات الأمريكية وسوقها تمهيدًا لخطة السيطرة الاقتصادية والابتزاز التي يبدو أنها لم تنجح، وشكَّلت معضلةً لمستقبل التفرد الأمريكي.

ننتقل إلى **المحور الثاني**، وعنوانه : (ظروف وأطراف التنافس على زعامة عالم ما بعد القطبية الأحادية)، وتحت هذا المحور نتناول موضوعين؛ الأول: عن الصين، وما مؤهلات بروزها كقطب رئيس في حال التحول إلى نظام دولي جديد؟

أجاب الدكتور عصام عبد الشافي عن ذلك قائلًا:

تمتلك الصين الكثير من الإمكانيات والقدرات التي تستطيع بها أن تشكل قطباً دوليًّا بقوة، وفق موازين قوة الدول الطبيعية والبشرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والتكنولوجية، وقد نجحت خلال السنوات العشر الماضية أن

تتوسع أفقيًّا ورأسيًّا في العديد من القطاعات والمجالات، وفي العديد من الأقاليم والمناطق عبر مبادرة الحزام، والطريق التي تستهدف -بعد السيطرة على الأسواق- السيطرة على طرق الوصول لهذه الأسواق في ظل المنافسة الكبيرة التي تواجهها من الولايات المتحدة.

كما نجحت الصين في التمدد تنظيميًّا عبر العديد من التحالفات السياسية والاقتصادية الدولية؛ مثل: منظمة شنغهاي للتعاون (SCO) التي تأسست عام ٢٠٠١ كرابطة متعددة الأطراف لضمان الأمن، والحفاظ على الاستقرار عبر الأنحاء الشاسعة لأوروبا وآسيا، وتوحيد الجهود للتصدي للتحديات والتهديدات الناشئة، وتعزيز التجارة ، فضلًا عن التعاون الثقافي والإنساني.

وتضم الرابطة حاليًّا (٩ دول)، هي: الصين وروسيا وإيران والهند وباكستان وكازاخستان وقرغيزستان، وطاجيكستان وأوزباكستان. بجانب منظمة (بريكس) الاقتصادية التي تضم بجانب الصين كلًّا من روسيا والهند والبرازيل وجنوب أفريقيا.

كذلك بدأت الصين تُولي اهتمامًا كبيرًا لقضية القوة الناعمة عبر الانتشار الواسع لتطبيقات التواصل الاجتماعي الصينية؛ (مثل: تيك توك)، والسينما الصينية، ونشر اللغة الصينية، والأكلات الصينية في العديد من دول العالم، وطرح العديد من المبادرات التنموية في كثير من أقاليم العالم.

لكنها رغم هذا التمدد، ما زالت تواجه العديد من التحديات التي تَعُوق تحولها إلى قطب دولي موازٍ للقطب الأمريكي، ومن ذلك قدراتها العسكرية، مقارنةً بالقوة الأمريكية، وحجم انتشارها الأمني والعسكري عبر العالم، وقدرتها على السيطرة على المفاتيح الاستراتيجية الدولية (المضايق والممرات المائية والبحار والمحيطات الدولية) مقارنةً بالولايات المتحدة، وكذلك معدلات الدخل الفردي في الصين، ومؤشرات التنمية البشرية في الداخل، وتحدي ملف حقوق الإنسان، وملف مسلمي تركستان، وكذلك قدرة الصين التأثيرية في المنظمات الدولية في مواجهة الأغلبية العددية التي تحركها الولايات المتحدة، ثم الملف الأهم والأخطر والذي يُشكِّل التحدي الأكبر للنهضة الصينية، والمتمثل في مصادر الطاقة؛ حيث تُعدُّ أكبر مستورد للنفط الخام في العالم، بإجمالي (٥١٣ مليون برميل سنويًّا)، وفق إحصاءات ٢٠٢١.

وهنا يطرح الدكتور صيام عوامل أخرى، تدفع باتجاه الصعود الصيني إلى مصاف المنافسة في ظل نظام دولي متعدد الأقطاب، فيقول : الصين عدوة للهند جغرافيًّا وديمغرافيًّا وحتى سوقيًّا؛ ولذلك فالصين حليف تاريخي لمسلمي شبه القارة الهندية.

والصين تاريخيًّا منافس للسوفيت، ثم الروس في آسيا الوسطى؛ لذا قامت الصين بدعم الأفغان ضد السوفيت، ورفضت الاحتلال الروسي، كما يتوقع للصين أن تتوسع سياسيًّا واقتصاديًّا في آسيا الوسطى بعد الحرب الأوكرانية لتملأ الفراغ الروسي، وكذلك يتوقع أن تواصل الصين التمدد عالميًّا مع اهتزاز أوروبا، ومزيد من إنهاك أمريكا داخليًّا وخارجيًّا، لا سيما بعد المواجهة الروسية.

كما أنه من الأهمية بمكانٍ ملاحظة أن الصين في مشرقنا وعالمنا الإسلامي مَعنيَّة بتحقيق مصالحها المادية المجردة دون جانبٍ إيدلوجي أو تصدير هُويَّة ثقافية بخلاف الخلط الأمريكي أو الغربي بين المصالح والأيدلوجيا وصراع الهُويَّات والعقائد الإنجيلية. من هنا أثبتت الصين جديَّة صداقتها لباكستان وحتى إيران عبر عقودٍ، ولم تفعل ما فعلته أمريكا من خذلان لحلفائها.

وننتقل إلى الموضوع الثاني من المحور المتعلق بظروف وأطراف التنافس على زعامة عالم ما بعد القطبية الأحادية ، وهو يدور حول فرص روسيا للعودة لمنافسة الغرب، وتأثير ذلك على تدخلاتها في بعض البلاد العربية والإسلامية.

وهنا يضع الدكتور عصام عبد الشافي نقاطًا على حروف ذلك الموضوع، فيقول:

مع انهيار الاتحاد السوفيتي ١٩٩١، وتفكُّكه إلى (١٥ جمهورية)، أصبحت روسيا الاتحادية الوريث الرسمي للاتحاد المنهار، واحتلت المقعد الدائم له في مجلس الأمن، ولكنَّها ظلت تعاني لنحو (٩ سنوات) بعد الانهيار من تراجع مؤشراتها الاقتصادية، مع عجز إدارة (يلتسين) عن التخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية، بسبب تداعيات التفكك والانقسام من ناحيةٍ، وتفشي الفساد المالي والإداري من ناحية ثانية، وحالة يلتسين الصحية من ناحية ثالثة، وغيرها من اعتبارات داخلية وخارجية.

حجم وطبيعة الإمكانات والقدرات التي تملكها روسيا الاتحادية، والتي تؤهلها لتكون قطبًا دوليًّا من ناحية، وارتباط هذه العودة في جانب كبير منها بشخصية بوتين، وهيمنته على عملية صنع القرار في الداخل الروسي، وطموحاته الذاتية من ناحية ثانية

ومع وصول بوتين للحكم في ١٩٩٩، لاستكمال العام الأخير من حكم يلتسين، ثم انتخابه عام ٢٠٠٠، وإعادة انتخابه ٢٠٠٤، وهيمنته على مقاليد الأمور في البلاد، وتغيير الدستور حتى يبقى في الحكم حتى عام ٢٠٣٤، وبناء عقيدته السياسية التي تقوم على مبدأ (استرداد الإمبراطورية القيصرية)، وكانت بداية التحركات الفعلية في هذا السياق: حروب الشيشان الأولى والثانية، ثم الهجوم على جورجيا واحتلال إقليمي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية ٢٠٠٨، والعدوان على أوكرانيا واحتلال شبه جزيرة القرم ٢٠١٤، والتدخل العسكري في سوريا لدعم نظام بشار الأسد ٢٠١٥، وصولًا إلى حرب أوكرانيا ٢٠٢٢.

هذه العودة، تشير إلى عدة اعتبارات؛ أولها: حجم وطبيعة الإمكانات والقدرات التي تملكها روسيا الاتحادية، والتي تؤهلها لتكون قطبًا دوليًّا من ناحية، وارتباط هذه العودة في جانب كبير منها بشخصية بوتين، وهيمنته على عملية صنع القرار في الداخل الروسي، وطموحاته الذاتية من ناحية ثانية، هذه الطموحات التي لن تتوقف على أوكرانيا في حال نَجَح في تحقيق أهدافه في حربه التي بدأها في الرابع والعشرين من فبراير ٢٠٢٢.

إلا أن هذه العودة الروسية تصطدم بالعديد من التحديات، من بينها: الوضع الاقتصادي

الروسي، والذي ما يزال هشًّا رغم كل الثروات التي تتمتع بها روسيا، والتحدي الديموغرافي، حيث لا يتجاوز عدد سكان روسيا (١٥٠ مليون نسمة) على مساحة جغرافية تتجاوز (١٧ مليون كم مربع)، هذا بجانب العقوبات التي تمَّ فرضها على روسيا جرَّاء عدوانها على أوكرانيا، واتجاه المنظومة الأوروبية إلى فك ارتباطها اقتصاديًّا مع روسيا، وسعيها نحو إعادة النظر في طبيعة منظومتها الأمنية، والسعي نحو تعزيزها لاحتواء أية تهديدات روسية مستقبلية.

هذا بجانب القوة الأمريكية الرافضة لأي صعود روسي، والتي ستبذل الكثير من الجهد خلال السنوات القليلة القادمة للحيلولة دون مزيدٍ من التمدد الروسي؛ سواء في شرق أوروبا، أو في الشرق الأوسط، بل وكذلك في جنوب شرق آسيا، عبر سلسلةٍ من السياسات والتحالفات التي بدأت في تعزيزها خلال الأعوام الأخيرة.

ويزيد الدكتور طاهر صيام هذه النقطة إيضاحًا، فيقول:

إذا استطاعت روسيا تحقيق معظم أهدافها في أوكرانيا، فستستمر في عشرية صعبة لمحاولة تطبيع علاقاتها واقتصادها مع أوروبا ، وهذا قد يعني أن القطار سيسبقها، خصوصًا الصيني وغيره.

روسيا اقتصاديًّا ليست دولةً عظمى إلا جيوسياسيًّا، وفي قطاعي الطاقة والقمح، وهو ما سيحدث شبه استغناءٍ عنه خلال مدًى مستقبلي من ناحية أوروبا، لكن تبقى روسيا قوة إستراتيجية وجغرافية في كتف أوروبا، ودولة تصنع السلاح.

المنطق اليوم يقول: إن روسيا تريد تأمين ذاتها أمنيًّا بوجه الناتو على مشارف موسكو وعنق البحر الأسود؛ لذا شنَّت حرب أوكرانيا، وضحَّت بالاقتصاد إلى حينٍ.

روسيا لا تريد الهيمنة على أوروبا، وإن كانت تريد دومًا حصةً ما؛ خصوصًا جنوب البحر المتوسط، وفي آسيا الوسطى.

بالمختصر، روسيا ستخرج من الحرب مُنْهكةً، وستبقى دولة ذات وزنٍ جيوبولوتيكي تطل على أوروبا.

ولدينا هنا موضوع ثالث خاص بالمحور الثاني المتعلق بظروف وأطراف التنافس على زعامة عالم ما بعد القطبية الأحادية، وهو موضوع يتطرق إلى العلاقة بين أوروبا وأمريكا في ظل احتمالات التحول في النظام الدولي، وهل هما إلى مزيدٍ من الاتصال أو الانفصال؟

يقول الدكتور طاهر صيام : الأنجلوساكسون الأمريكان والبريطانيون بمعيَّة أستراليا ورَّطوا أوروبا بحرب روسيا من خلال تعنُّتهم وتضييقهم على الروس في أوكرانيا منذ عقدين ونيف، هذا التوريط رافقه تصعيد في الموقف الأمريكي من الحرب مع روسيا. نلاحظ هنا أنَّ من أهدافه أنْ تسقط أوروبا رهينةً لرغبات أمريكا المستقبلية في الخطوات اللاحقة من أجل محاصرة الصين اقتصاديًّا، بينما أوروبا ليست من أولوياتها الصين، لا سيما أنها مُثْقلة بفاتورة (الركود الاقتصادي) وتبعات حرب أوكرانيا.

أمريكا تريد أن تجعل الناتو هو المظلَّة السياسية المقدمة على الدور السياسي للاتحاد

الأوروبي، فيما أخذت بريطانيا أَمْرها، وتلحَّفت بالبريكست.

لكن الدكتور عصام عبد الشافي له رأي آخر، يقول فيه:

من خلال متابعة تداعيات الأزمة الأوكرانية ٢٠٢٢، أعتقد أن التوجُّه الاستراتيجي هو تعزيز التعاون والاندماج بين أوروبا والولايات المتحدة، حيث عملت المنظومة الغربية بجناحيها الأطلسيين على توظيف التدخل العسكري الروسي في أوكرانيا، والاستفادة منه جماعيًّا على عدة مستويات؛ أولها: تذكير طرفي الأطلسي بأهدافهما المشتركة، فقد ساعدت العملية الروسية في أوكرانيا على تذكير الولايات المتحدة وأوروبا بأهدافهما العالمية المشتركة، وبلورة هذه الأهداف مجددًا في إطار إعلاء القيم الديمقراطية التي مثَّل التدخل الروسي تحديًا لها ما كان حافزًا لمظاهر عدة من التضامن بين القوى الغربية والدولية. وجاء في إطار ذلك موافقة ألمانيا على زيادة الإنفاق الدفاعي إلى (٢٪) من الناتج المحلي الإجمالي، وتعهُّد اليابان بقبول اللاجئين الأوكرانيين، وتحرُّك بريطانيا لإخضاع ثروات رجال الأعمال الروس لرقابة جادة. وعملت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي جنبًا إلى جنب لفرض عقوبات متصاعدة على روسيا.

وثانيها: تحفيز الغرب على حماية قواعد النظام الدولي القائم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية التي عرَّف بوتين نفسه بأنه معارض لها؛ ذلك أن التدخُّل الروسي مثَّل تحديًا لنظام الأمم

الحرب ستدفع نحو تغيُّر جذري في بنية النظام الدولي الراهن

المتحدة التي يقوم ميثاقها على احترام السيادة، وتحديًا لأوروبا التي يسعى بوتين إلى إعادة ترسيم حدودها، وتهديدًا لحكم القانون.

وثالثها: اتجاه الناتو نحو تعزيز جناحه الشرقي، فتدخل روسيا في أوكرانيا دَفَع الحلف إلى الاتجاه نحو تقوية جناحه الشرقي؛ ونظرًا إلى أن تدخل (بوتين) في دولة مستقلة ذات سيادة لم يكن متخيلًا من قبل؛ ومع توقع تحول مركز الأزمة مستقبلًا من أوكرانيا إلى دول البلطيق، وكذلك إلى بولندا والدول الأخرى التي ستشكل الحدود الجديدة للغرب في مواجهة روسيا، فسيمثل ذلك حافزًا للولايات المتحدة وحلفائها في (الناتو) على إرسال المزيد من القوات، والمزيد من المعدات إلى تلك الدول الواقعة على خط المواجهة.

ونتحوَّل إلى المحور الثالث من هذه الندوة، وهو المتعلق بالحرب الروسية الأوكرانية وانعكاساتها العالمية، وهنا يبدي الدكتور عصام عبد الشافي وجهة نظر مخالفة نوعًا ما عن التوقعات السائدة، فيقول:

أعتقد أن الحرب ستدفع نحو تغيُّر جذري في بنية النظام الدولي الراهن، ولكن من وجهة نظري نحو نظام غربي أكثر هيمنة وأحادية في ظل الأضرار الكبيرة التي ستطال روسيا وحلفاءها في المواجهة الحالية إذا طال أمد الحرب في

أوكرانيا، فالعقوبات الاقتصادية التي تمَّ فرضها على روسيا يمكن أن تعود بها لما كانت عليها عام ١٩٩٩، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ولن يساعدها الارتفاع الكبير في أسعار النفط والغاز، أهم مصادر دخلها القومي، في ظل العقوبات المفروضة عليها من الدول والشركات العملاقة والمؤسسات المالية والاقتصادية الضخمة، ولا أعتقد أن الصين يمكن أن تتورَّط في تقديم دعم عسكري مباشر لروسيا في حال تمدَّدت الحرب خارج المسرح الأوربي؛ لأنها أكثر حرصًا على الحفاظ على مُقدَّراتها وتأمين نموذجها، على الأقل مرحليًّا، حتى تحتوى التداعيات المباشرة للأزمة الأوكرانية.

ومن ناحية ثانية يمكن القول: إن العالم بعد الحرب الأوكرانية سيتجه نحو مزيدٍ من هيمنة المؤسسات الغربية، وهذا ما وضح جليًّا في الأزمة، حيث تحركت معظم المؤسسات السياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية، بل والصحية والرياضية والشركات الفنية والإعلامية بتناغم كامل في توجهاتها وممارساتها وإجراءاتها ضد روسيا وسياساتها وحلفائها، وتمَّ حشد الأغلبية العظمى من الهيئات والمؤسسات والشركات التابعة للمنظومة الغربية في مواجهة السياسات الروسية، وكان في مقدمة هذه المؤسسات منظومة الأمم المتحدة، والناتو والاتحاد الأوروبي ومحكمة العدل الدولية، والمحكمة الجنائية الدولية، والمؤسسات المالية الدولية، بل وتوجيه رسائل نصية وخطابات رسمية لمعظم النظم السياسية في العالم، بتحديد مواقفها من الغزو الروسي لأوكرانيا.

وماذا عن تأثيرات وتداعيات الحرب الأوكرانية على روسيا نفسها؟

يجيب الدكتور طاهر صيام قائلًا:

روسيا تعي أن الناتو منذ (٢٥ سنة) يبتلع أوكرانيا من خلال مؤسسات الغرب الناعمة والقطاع الثالث التي رعاها أمثال جورج سورس كواجهةٍ لبنوك موَّلته، وهي بدورها لها ارتباطاتها الخاصة.

روسيا تعي تاريخيًّا أن أوروبا الغربية دومًا تودُّ جعلها دولة مُكبَّلة وعادية في قمقم معزول عن الغلاف الأرثوذكسي المحيط بها، فضلًا عن النظرة الخاصة للشعب السلافي والإرث القيصري، كل هذا ليس جديدًا على أوروبا الغربية التي حاولت إخضاع موسكو على يد الفايكنج ثم نابليون ثم حرب القرم ثم الغزو الهتلري.

الفترة الأخيرة وصلت ذروتها مع نشاط الناتو في أوكرانيا، وإنشاء عشرات المعامل البيلوجية وغيرها حسب شهادة الصينيين، والأهم التخطيط لإنشاء قواعد للناتو لاحقًا قرب القرم وعنق البحر الأسود، كل هذا كان يعني أن موسكو ستصير بدون عازل جغرافي عن الناتو فضلًا عن القدرة على خنق الأسطول الروسي من الخروج إلى الفضاء العالمي بعيدًا عن المياه المتجمدة البعيدة شمالًا في البلطيق والغرب.

هنا اختارت روسيا الحرب كردٍّ فعلٍ لحماية الأمن القومي على حساب الأمن الاقتصادي وَلو لحينٍ مستغلةً فترة مثالية على خلفية (الجائحة) والتصدع السياسي الأمريكي الداخلي.

الــروس مُتعــوِّدون على تحمل الخســائر الكبــيرة في حروبهم الســابقة بخلاف الجيوش الغربيــة، كما يعتمــدون على قــوة بشرية كبيرة وأرتال متتابعة تبــدأ بالأقليات من أجل الوصول لأغراضهــم، مثلما توقــع الاســتراتيجيون قبل الحرب -بغضِّ النظر عن ماكينة الغرب الإعلامية- فالروس هدفهم المناطــق الانفصالية الشريطية والحدودية التي هي غنية بالموارد؛ كالتعدين في إقليم الدونباس، أو استراتيجية كالقرم وخيرسون وميناء ماريبول، وربما الأهم وهو ميناء أوديســا رِئة أوكرانيا، وبالتالي تكوين روسيا الجنوبية التي ستؤمن البحر الأسود.

على أية حال، اضطرَّ الروس لمهاجمة وسط وباقي أوكرانيــا في البداية لغرضين؛ وهما: كسر القــوة المركزية الأوكرانية قبــل التفرغ للمناطق الســاحلية والحدودية -أوكرانيا المفيدة- وكذلك زيــادة الفاتورة عــلى أوكرانيــا الأم حتى تصبح (دولة معاقة)، وتبقى مجرد حاجز جغرافي منزوع السلاح في المستقبل بعد توقيع معاهدةٍ ما دولية حســب خطة الروس التي يبدو أنها تُحقق بعض أهدافها حتى الآن.

الروس سيفاوضون بشــكل جاد فقط بعد تحقيق معظم الأهداف الســابقة، وهم مستعدون لدفع الثمن الكامل من أجل تحقيق الحد الأدنى الضروري ممَّا ســبق، وهم يدركون الفائدة على المدى البعيد مقارنةً فيما لو لم يتحركوا، وإن كان الثمن باهظًا في الحالتين وغير مضمون.

في الوقت المناسب حينما تُنهك روسيا والغرب، قد يتدخل الصينيون في (تايون) بطريقةٍ ما، وسيتمددون في أفغانستان وباكستان وأفريقيا والخليج اقتصاديًّا

وهنا يثور تساؤل: وسط كل هذه التعقيدات الدولية واحتمالات التحول في الموازين العالمية، أين ستقف الصين؟ هل ســتلوذ بموقف الحياد بين روســيا والغرب حفاظًا على معدل صعودها في ظل انشــغالات أمريكا؟ أو ستضطر للانحياز تجاه روســيا استغلالًا لفرصة عودة للمعسكر قد لا تتكرر؟

يجيب الدكتور صيام، فيقول:

دعونا بدايةً نقارن بين روسيا والصين، ولماذا مواجهة الغرب مع الصين أصعب وأعقد بكثير:

روسيا تاريخيًّا ليس لديها اقتصاد إمبريالي أو شبكي عالمي فعَّال يســتطيع أن يُلبِّي هذا الدور الضخم، وتكاليفــه الذاتية، وتبعاتــه الخارجية كحرب باردة أو ساخنة مع الغرب.

بينما الصــين الناعمة تعــرف كيف (تحفز روسيا)، وتســتفيد من بحثها عن المجد أو قُلْ: الوزن المفقود.

بوتين الذي يمكن أن نقــرأ في عينيه وعقله كلمــة (كي جي بي)، لا أظن أنه يتقبَّل (نفســيًّا) حقيقة أن النمــوذج الروسي الاســتعماري منذ القيصرية والشيوعية فاشل؛ لأنه مُكلف على كل صعيد، وليس مُجديًا؛ لافتقاره للشبكية الاقتصادية العالمية، واقتصاره معنويًّا على أيدلوجيا حديدية لا بريق لها كما الحال مع الغرب.

بوتــين كبرجينيــف، لم يتقبَّــل نصائــح

المستشارين حينما دخل أفغانستان ١٩٧٩ بمنطق حماية مصالح السوفيت، بل والوصول إلى المياه الدافئة، ثم تطويق الممرَّات إلى بحر العرب وآسيا الوسطى، وهذا الذي جعل الصين تقف ضد السوفيت عام ٧٩، وهي معادلة الصين القائمة مع روسيا اليوم في آسيا الوسطى إذا جدَّ الجدُّ، حتى لو بدا غير ذلك.

في المقابل، تبقى الصين لديها القوة الاقتصادية والمنافع الشبكية المتبادلة والمتغلغلة عالميًّا، والتي تلاعب من خلالها الاقتصاد الإمبريالي بكفاءة، وكذلك لديها جيش قوي غير مكلف على نمط (الدب الروسي الثقيل) أو فاتورة (النسر الأمريكي) العالية داخليًّا وخارجيًّا.

في الوقت المناسب حينما تُنهك روسيا والغرب، قد يتدخل الصينيون في (تايون) بطريقةٍ ما، وسيتمددون في أفغانستان وباكستان وأفريقيا والخليج اقتصاديًّا، وسيؤول اقتصاد (كازاخستان) لصالح الصين الناعمة، فروابط الصين التجارية والتعليمية والشيوعية مع وداخل كازخستان عميقة، والاتحاد الروسي لن يعيد عقارب الساعة، وروسيا الكبرى والكومنولث الروسي يهربان نوعًا ما إلى الأمام من انتقام الجغرافيا والتفكك الذي تكلَّم عنه (كابلان) في كتابه (انتقام الجغرافيا)، والذي يبدو أنه سَيَطال دولًا أخرى كبيرة.

إذن ماذا عن عودة الحرب الباردة التي ذهب معظم المُحلِّلين عن أنها قد عادت بالفعل؟

يجيب الدكتور صيام، فيقول:

ببساطةٍ أميل هنا إلى رأي (بريجنسكي) قبل وفاته، وهو أن الحرب الباردة هدأت ولم تنتهِ، وهذا قائم على تاريخ وطموح وحجم وموقع روسيا الجغرافي في ديمغرافيا أوروبا عبر التاريخ؛ ممَّا استدعى حملات أوروبية كبرى عليها كما مرَّ معنا. لقد حذَّر مستشار الأمن القومي العتيد من الإمعان في إذلال روسيا بدلًا من التحالف معها لتطويق الصين، أي: الهدف الأهم.

عين هذا الكلام وبشكلٍ عميقٍ يخبرنا إياه (نيكسون) في آخر كتاب له قبل وفاته عام ١٩٩٤ (ما وراء السلام)، ويحذر من اعتبار روسيا غير قادرة على العودة كقوة كبيرة مؤثرة، مطالبًا بضرورة كسبها بحذر وليبرالية في المعركة الاقتصادية ضد الصين. يقول (نيكسون): «لقد كسبنا الحرب الباردة ضد الشيوعيين، وليس روسيا، والشعب الروسي عنده إمكانيات وتاريخ يمكنه دومًا أن يفرض نفسه».

ونصل إلى الزبدة المرجوَّة من إجراء هذه الندوة، وهي تمثل سؤال الساعة، وهو: ما موقف المسلمين وموقعهم في ظلِّ توقعات التحوُّلات في نظام دولي جديد؟

يستفيض الدكتور طاهر صيام هنا، فيقول:

علينا -أولًا- أن نعي أن عامل الزمن هو

المشروع الصهيوني ديموغرافيًّا متعثر بشدة، والتفكك المجتمعي والهجرة العكسية واقع متزايد، في الوقت الذي يراهن فيه الصهاينة على قدرة المشروع الرافضي على تفكيك (الديموغرافيا السنية) وتجزيرها

مرتكـــز في التحول السُّـــني، وأنَّ دوام الحال من المحـــال، فنحن خرجنـــا من الحـــرب العالمية فقط قبـــل ٧٥ ســـنة، وتغير وجه العـــالم. ومن الضروري ألَّا ننســـاق خلف الشـــحن المعنوي والأيدلوجي والخطاب الســـياسي المبالغ فيه في الشارع العربي العام، وبالتالي الوقوع في فوضى خلَّاقة أو عارمة (مقصودة) تنتظر مطارق التواطؤ الدولي والقمـــع المحلي، ومن ثَمَّ إحداث تفريغ نفسي وإحباط في الشـــارع المســـلم العام يَعقبه مزيد مـــن التطبيع مع دولة الكيان، ويفرخ كذلك مزيدًا من نباتات الغلو؛ مثل: هذا هو -فعلاً- من مشـــاريع المحافظين الجدد، وتنظـــيرات أمثال: بيرنار لويس، فتأملوا جيدًا في الأحداث، وعفوية واندفاع الفعل والخطاب السياسي الإسلامي.

وفي تصـــوُّري البســـيط أن (التغـــيرات الاجتماعيـــة) في العـــالم وعصر ما بعـــد (بعد) الحداثة، وأزمة الهُويَّات والتحولات الديموغرافية وموت الرجل الأبيض وتراجع العلمانية كجواب عن الأســـئلة الكبرى، وخواء الـــذات والإلحاد، كلهـــا إرهاصات لـ (التحـــول الاجتماعي) الذي سيملأ هذا الفراغ الكبير في عالم متداخل معرفيًّا، وبوجود جاليات إســـلامية كبيرة أَرْسَـــتْ أركانها ومؤسســـاتها الدعوية في كل زوايا الأرض وهي قادرة على تسريع انتشـــار الإسلام بين الأمم من داخلها، وكذلك توعية عموم الشـــعوب، وكسب طبقات مهمة منها في الوقت الذي بات فيه الإعلام لا مركزيًّا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتـــالي تراجع احتكار الإعلام الروتشـــفيلدي والروكفيلري للرأي العام بســـطوة المال والإعلام المركزي، وهو ما رأينـــاه في تجربة الانتخابات الأمريكيـــة حيث تغلب الإعـــلام اللامركزي في اليوتيوب على محطـــات (السي إن إن)، وغيرها من خلال عدد المشاهدين.

العامل الثاني المهم: إن المشروع الصهيوني ديموغرافيًّـــا متعثر بشـــدة، والتفكك المجتمعي والهجرة العكســـية واقع متزايد، في الوقت الذي يراهن فيه الصهاينة على قدرة المشروع الرافضي على تفكيك (الديموغرافيا السنية) وتجزيرها كما هو حاصل في عدة عواصم.

هنـــا علينـــا لاحقًـــا أن نفك شـــيفرة محور المقاومـــة، وحقيقة موقفه من فلســـطين بعد أن توقيع إيران على الاتفـــاق النووي، وتبدأ مرحلة المفاوضات الواســـعة بين هذا المحور والقوى الدوليـــة من أجل تســـوية دوليـــة أو هدنة طويلة الأمد متوقعة في فلســـطين وغزة، بينما قد تقترب إيران بشكل واضح من الغرب من بوابة المصالح الاقتصادية -النفط والغـــاز- وتبتعد تدريجيًّا عن روسيا.

توجد تناقضات في حقوق قزوين، وتنافس

إيران -أو قل: الكيان الرافضي- لم يتمَّ كسره تاريخيًّا دون مساهمة جوهرية من السنة في غربها، أي: البلوش والأفغان والسند والبنجاب وباقي فارس السنية.
هنا تأتي أهمية عودة أفغانستان، وضرورة صمود وانبثاق باكستان كقوة عسكرية وديموغرافية

برغماتي في الطاقة عمومًا، خصوصًا مع العقوبات على روسيا، وتصبح أكثر اعتدالًا في علاقتها مع الصين، وهو قد يؤدي إلى ترويكا في المجتمع الإيراني الذي تَعَلمَن أكثر، ويعاني من نمو بطيء في السكان الشيعة الفرس، واستقطابات سياسية بين الطبقات الحاكمة، وشكل الدولة بعد خامنئي، مع وجود تيار قوي يعارض سياسة الأذرع الخارجية وفاتورتها المالية والسياسة الكبيرة في لبنان واليمن وسوريا وغيرها من خلال مبدأ تصدير الثورة.

إيران إمَّا أن تؤهل بنيتها ونظامها السياسي لتقترب من نموذج شبه علماني، أو تبقى على حالها من خلال وراثة منظومة خامنئي، وبالتالي سيصبح سيناريو التمرد الشعبي الاقتصادي والثورة المضادة للخمينية، وسقوط ملالي طهران قبل أذرعها الأكثر تدينًا من عموم الإيرانيين الشيعة، كما لا ننسى أن إيران محاطة بحزام سني داخلي فضلًا عن (٣٠ مليونًا) من الشيعة الأذريين في الداخل.

علينا أن نتذكر دومًا أن (قلب العالم الإسلامي) وحواضره منهكة تمامًا كما كانت في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وأنه لطالما جاءت الحلول من أطراف العالم الإسلامي، كما فعلت الدولة المرابطية والسلجوقية والغزنوية حينما نفضوا البويهيين والقرامطة والفاطميين والصليبين دفعة واحدة.

إيران -أو قل: الكيان الرافضي- لم يتمَّ كسره تاريخيًّا دون مساهمة جوهرية من السنة في غربها، أي: البلوش والأفغان والسند والبنجاب وباقي فارس السنية. هنا تأتي أهمية عودة أفغانستان، وضرورة صمود وانبثاق باكستان كقوة عسكرية وديموغرافية، وحليف عتيد للصين، خصوصًا بوجه العدوة المشتركة (الهند).

وفي تصوري أن عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء في باكستان، وحكومة شهباز ما هي إلا قنطرة لكسب الوقت من طرف الجيش صانع السياسة والسياسيين في باكستان، ريثما تهدأ آثار الجائحة، ويتم تحصيل المعونات المالية من الخليج، وتتضح بَوْصلة حرب أوكرانيا وموازين القوى. الجيش الباكستاني يعي أن خياره المضمون والجيد هو الصين اقتصاديًّا وعسكريًّا، ولن يتراجع عنه.

هنا نأتي إلى العامل الحيوي الثالث بناءً على ما سبق، وهو أهمية الصين كحليف اقتصادي ومصلحي غير أيدلوجي للعالم الإسلامي، ولكن من بواية الباكستان التي أَرْسَت خبرةً وتراثًا في التعامل مع الصين، وبالتالي الباكستان تمثل المدخل المهم للعلاقة مع باقي المشرق السني.

وكلما توثق الرابط الباكستاني الصيني وتوسع الحلف ليشمل دولًا سُنيةً، فسوف نفلح في تحجيم أولوية إيران بالنسبة للصين، فضلًا عن أن الأمر أساسًا متعلق ببداية التحرر والفكاك من شدة قبضة الغرب اقتصاديًّا ثم سياسيًّا عبر بواية الصين.

الأحلاف المعاصرة وأحوالها وأحكامها

د. هشام برغش

لا يخفى على أحدٍ ما آل إليه واقع المعمورة القائم، وما أصبح عليه المجتمع الدولي المعاصر والمنظومة الدولية الحديثة التي أوجدت أحوالًا، وأفرزت علاقات وروابط ومواثيق دولية غير مسبوقةٍ، في الوقت الذي لم تعد فيه للإسلام دولة جامعة على غرار دولة الخلافة، بل أصبح العالم الإسلامي دُوَيلات عديدة وكيانات منفصلة، ولكلٍّ منها أحوال مختلفة من القوة أو الضعف، ومن الظهور والريادة والقيادة، أو الذل والمهانة والتبعيَّة.

وما صاحب هذه وتلك من نشأةٍ للأحلاف العسكرية المعاصرة بصورها المختلفة والمتنوعة؛ سواء من حيث أطرافها، أو من حيث أهدافها، أو من حيث الكيانات المستهدفة بها.

وهنا يثور هذا التساؤل: في ظلِّ هذا الواقع الحديث، وتلك المتغيرات الجديدة، ما موقف الإسلام من عَقْد هذه الأحلاف؟ وهل لموقف الإسلام من المجتمع الدولي تأثير على هذا الحكم؟ وهل يمكن عَقْد هذه الأحلاف بين دول إسلامية ودول غير إسلامية؟ وما حكم عَقْد هذه

الأحلاف بين الدول الإسلامية نفسها؟

وللإجابة على هذه التساؤلات وغيرها، فإنَّنا نقول:

إن اللـه سـبحانه قد خصَّ هـذه الأمة بأن جعلها أُمَّة مسـلمة لله، مؤمنة بما أنزل الله على رسـوله، أمـة ذات خلافة ومنهـج، وذات نظام مهيمن وسـيادة وسـلطان وقوامة على البشرية كلها، أمة ذات ولاءٍ خاص لله ورسوله، مجاهدة في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا.

ولقد كانـت علاقة الأمة المسـلمة بالأمم الأخرى قائمةً على أساس تحقيق هذه الصفات، ولقد تحقَّقت بالفعل، فكانت هذه الأمة هي أمة الدعوة والهداية والرحمة والعدل، وأمة السلطان والسيادة طوال قرون عديدة، حتى جاءت القرون المتأخرة، وبـدأت هذه الأمة تتخـلَّى عن تلك الصفات رويدًا رويدًا.

ولمَّا أن تغشَّاها الضعف، واكتنفها الأعداء وتقاسـموها، وأسـلمت نفسـها لمناهجهـم وأهوائهم، وأصبحت تابعةً غير متبوعة، وخاضعةً مُسْتكينةً، سلك بها الأعداء كل مسلك مُضلِّلينها حتى أبعدوها عن صفاتها الحقيقية.

فلما تحوَّلت عمَّا كانت عليه، ونَسـيت ما كلَّفهـا الله به، وتحررت مـن تلك الصفات في عـالم الواقـع، كذلك بدأت تتخلـص من هذه الصفات في عالم الفكر، فجاءت كتابات بعض المحدثين لتنكر شـعيرة الجهاد، أو لتقصره على بعض صوره، ولتجعل الدنيا دارًا واحدةً.

وأخَـذ هؤلاء الكُتَّاب يعارضون ما اسـتقرَّ من صفات الأمة المسـلمة، وما دَوَّنه الفقهاء في كتبهم من أحكام التعامل بين المسلمين وغيرهم من الكفار.

حيث إنَّه من الأمور المتقرِّرة في علم السِّير أنَّ أحـكام التعامل مع غير المسـلمين تختلف باختلاف أقسـامهم في الفقه؛ فالكفار منهم مَن كُفْره أصلي، ويطلق عليهم: (الكفار الأصليون)، ومنهم مَن كُفْره طارئ، وهم: (المرتدون).

والكفَّـار الأصليون منهم من لـه عهدٌ مع المسـلمين، ومنهم مـن ليس كذلـك، ومَنْ له عهدٌ مع المسـلمين منهم مَن عهدُه دائم، وهم: (الذمِّيُّون)؛ ومنهم مَن عهدُه مؤقت أو مطلق غير مؤبَّد، وهم الموادعون بالأمان، أو بالهدنة.

ولكل قسم معاملة تخصُّه شرعًا، فلا يعامل مَن هو من رعايا دار الإسـلام معاملة مَن ينتمي إلى غيرها، ولا يعامل مَن له عهدٌ مع دار الإسلام معاملة مَن لا يصله بدار الإسلام أي عهدٍ.

ومن هنا خص العلماء كل صنفٍ بكتب أو أبواب في كتب الفقـه، وخص كل صنفٍ منهم بتعريفٍ يُميِّزه عن غيره؛ ليكون هذا التعامل معه تعاملًا على مقتضى الشرع.

وقد اقتضت سُـنَّة الله في خَلْقه أن يختلف النـاس في دينهـم؛ فمنهـم المؤمـن، ومنهم

يمكننا القول: إن الجهاد لم يشرع فقط لرد العدوان ودفع المعتدين، وإنما شرع لذلك، ولأمرٍ آخر أكثر منه أهميةً، وألصق منه بطبيعة هذا الدين، وبطبيعة هذه الأمة ووظيفتها، وهو نَشْر الإسلام، وإدخال الناس فيه

الكافر؛ مصداق قولـه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢]، وقولـه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وكما اقتضت حكمته سبحانه أن يختلف الناس بين مؤمنٍ وكافرٍ، فقد اقتضت حكمته أيضًا أن يتدافعوا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠].

فاقتضت سُنَّة التدافع التي قدَّرها الله بين الناس أن يختلفوا بين مسالم ومحارب، وأن يدفع بعضهم ببعضٍ، حتى لا تفسد الأرض، وتهدم الصوامع والبِيَع والمساجد التي يُذكَر فيها اسم الله كثيرًا إذا تسلَّط الطغاة على الأرض، ولم يجدوا مَن يردعهم، ويرد ظلمهم وطغيانهم.

وكان من نتيجة ذلك أن انقسمت الأرض إلى دارين أو أكثر: دار حرب، ودار إسلام، ودار عهد، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة.

واختلف الفقهاء في أصل العلاقة بين دار الإسلام ودار الكفر؟ هل الأصل فيها هو الحرب، فتكون القاعدة المستمرة بين دار الإسلام ودار الكفر هي الحرب، ولا يكون سِلْم إلا بالدخول في الإسلام، أو في عقد صلح أو ذمة أو أمان؟ أم أن

إن الأصل في العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية هو: (تحقيق السيادة للدين)، وأحسب أن ما آلَ إليه أمر الجهاد في صدر الإسلام هو هذا

الأصل هو السِّلم، ولا يجب على المسلمين أن يقاتلوا إلا مَن يقاتلهم ويعتدي على حرماتهم، أو يقف في وجه دعوتهم، ويفتن مَن دخل الإسلام باختياره، فتكون الحرب وضعًا استثنائيًّا، ويكون السِّلم هو القاعدة المستمرة حتى ولو لم يكن ثَمَّ هدنة، ولا صلح، ولا أمان؟

وبعبارةٍ أخرى، لماذا شُرع جهاد الكفار في الإسلام؟ أهو لمجرد كفرهم؟ أم لعدوانهم على المسلمين؟

وبعيدًا عن الخوض في تفصيل هذا الخلاف، وفي حجة كل فريقٍ، فإنه يمكننا القول: إن الجهاد لم يشرع فقط لرد العدوان ودفع المعتدين، وإنما شرع لذلك، ولأمرٍ آخر أكثر منه أهميةً، وألصق منه بطبيعة هذا الدين، وبطبيعة هذه الأمة ووظيفتها، وهو نَشْر الإسلام، وإدخال الناس فيه، وهذا هو الذي تدل عليه النصوص من القرآن والسنة.

ولا يلزم من ذلك أن يكون الأصل في علاقة الدولة الإسلامية بالدول غير الإسلامية هو الحرب؛ لأن هذا القول لا يُعبِّر بدقةٍ عن وضع الدولة الإسلامية، ولا يعكس بصدقٍ صورة الجهاد الإسلامي.

فالدولة الإسلامية حاملة لرسالة سماوية،

ومنفذة لشريعة ربانية، ومقررة لسيادة إلهية، وهي مكلفة بحمل البشرية -بالدعوة والبيان، ثم بالسيف والسِّنان- على قبول الرسالة، وتنفيذ الشريعة، والخضوع والدينونة للسيادة، هذا هو وَضْع الدولة الإسلامية.

أما صورة الجهاد الإسلامي، فتتمثَّل في أنه وسيلة لا غاية، ومن شأن الوسيلة أن تكون محكومة لا حاكمة.

لذلك نقول: إن الأصل في العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية هو: (تحقيق السيادة للدين)، وأحسب أن ما آلَ إليه أمر الجهاد في صدر الإسلام هو هذا.

يقول ابن القيِّم بعد أن شرح مراحل الجهاد:

«فاستقرَّ أَمْر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب»[1].

وعلى ضوء هذا الأصل ترسم الدولة الإسلامية سياستها الخارجية.

ومع اعتبار هذا الأساس المقاصدي الذي تقوم عليه حقيقة العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها، فإنه ينبغي للدولة الإسلامية مراعاة ظروف الزمان والمكان والحال.

المنظومة الدولية والعلاقات المعاصرة:

من المُسلَّم به أن واقع معظم دول العالم

قرار عدم المشاركة في بعض العهود الدولية في هذا الزمان؛ لكونها قد تضمنت أمورًا تخالف وتصادم الشريعة صراحةً- إنما هو أمرٌ يخضع إلى توافر القدرة والقوة والنفوذ

اليوم لم يُبْنَ على صيغة الوحدة القائمة على الرابطة الدينية، إنما صِيغَ وَفق نظام لا ديني في الجملة، اعتبر فيه معنًى جديد للسيادة وَفق مقاصد المخلوق صاحب شِرْعة هذا النظام، تلك الشِّرْعة التي لا يكاد يوجد فيها نصيب للأمة المسلمة.

وبناءً على تفسير ذلك المُشرِّع لمفهوم السيادة، قامت أرجاء المعمورة، والدول الإسلامية اليوم دون استثناءٍ هي جزء من هذه المنظومة، وإنْ بقيت لها بقية ضمن نظامها الداخلي لم تزل تملك تصريفها وَفق بعض أحكام الشريعة.

وهذا يُحتِّم دراسة وتوصيف الحالة الراهنة لعالمنا المعاصر في مقابلة ما تقدَّم من البيان بخصوص تقسيم المعمورة، وأصل العلاقة بين دار الإسلام ودار الكفر، وذلك من أجل الوصول إلى الموقف الصحيح والمقبول شرعًا، والذي يمكن من خلاله التعامل مع هذا الواقع بما يناسبه وَفق القدر المتاح الذي يقدمه فقه الضرورة وقواعدها وضوابطها.

أيكون ذلك بقبول هذا الواقع، والرضا به، والتعامل معه، والاستفادة منه لتقديم المشروع الإسلامي الحضاري، أو يرفض هذا النظام جملةً وتفصيلًا، ويعتبره مناقضًا لشريعة الإسلام، وأن

(١) ينظر: زاد المعاد (٣/١٦٠).

المنظومة الباطشة التي أفرزتها الحرب العالمية لا تغفل الرابطة الدينية إلا عندما يتعلَّق الأمر بالمسلمين، بينما تستدعيها بجميع صورها وآليَّاتها ومضامينها ومقتضياتها عندما يتعلَّق الأمر بصراعاتها وحروبها ومواقفها، وليس أدلَّ على ذلك وأظهر من موقفها من الحرب الروسية الأوكرانية الأخيرة

الرضا به رضًا بالطاغوت، وتحكيم له؟

ممَّا لا شكَّ فيه أن الإنكار المطلق لا يأتي على تحقيق المصالح، ولا يجري على منهاج الرسل عليهم السلام، ومن ثَمَّ فإن قرار عدم المشاركة في بعض العهود الدولية في هذا الزمان؛ لكونها قد تضمنت أمورًا تخالف وتصادم الشريعة صراحةً- إنما هو أمرٌ يخضع إلى توافر القدرة والقوة والنفوذ، ومما لا شكَّ فيه أنه اشتراطٌ متعذرٌ على الدولة الإسلامية في أكثر الأحوال في الظروف الراهنة، ومن ثَمَّ فإنها قد يكون لها مندوحة بعض الوقت في موقفها العام من تلك العهود.

لكن هذا لا يعني التسليم لهذه المواثيق وتلك الشرائع كليةً دون تحفُّظ أو اعتراض على ما يخالف ويصادم أحكام الشريعة الإسلامية، ومن باب أَوْلَى قول البعض: إن هذه المواثيق وتلك الشرائع تتفق تمامًا مع الإسلام، فإنَّ هذا قولٌ مُنافٍ ومُجافٍ تمامًا للواقع.

وهذا لا يعفي الدول الإسلامية -صاحبة أرقى مشروع حضاري تجهل حسنه الأمم- من أن تسابق لاستعادة مكانتها وريادتها ومهابتها، وأن تقوم بدورها المنوط بها من الدعوة إلى الإسلام، والتعريف به، وإظهار محاسنه، وإبراز مشروعها الحضاري بصيغةٍ تلتقي ولغة العصر، تحقُّ الحق، وتُظهر الزيف، وتقدم للعالم كله ما يفقده في مشروعه الحضاري المعاصر.

ومن نافلة القول: التأكيد على أن هذه المنظومة الباطشة التي أفرزتها الحرب العالمية لا تغفل الرابطة الدينية إلا عندما يتعلَّق الأمر بالمسلمين، بينما تستدعيها بجميع صورها وآليَّاتها ومضامينها ومقتضياتها عندما يتعلَّق الأمر بصراعاتها وحروبها ومواقفها، وليس أدلَّ على ذلك وأظهر من موقفها من الحرب الروسية الأوكرانية الأخيرة التي استدعت فيها مفهوم الأمة النصرانية الواحدة، وما يتطلَّب ذلك من جهادٍ بالنفس والمال العابر للحدود ولتشريعات هذه المنظومة التي طالما ألزموا بها المسلمين في تحريم الدفاع عن ديار المسلمين التي تتعرَّض للغزو، أو نصرة أبنائهم الذين يتعرَّضون للإبادة والتهجير القسري، ويستنصرون بهم!!

حكم التحالف مع الكفار، والاستعانة بهم:

الأصل في جند الإسلام الذين يحمون جَنابه، ويحرسون عقيدته وشريعته، ويجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله- الأصل فيهم أن يكونوا من أتباعه المؤمنين به، المنتسبين إليه، غير أنه قد تقتضي الظروف والأحوال التي تعتري الأمة المسلمة أحيانًا -من ضعفٍ أو عجزٍ، مع قوة عدوهم- أن تتجه إلى غير المسلمين؛ لتعقد

معهم حلفًا تستعين فيه بهم، أو يستعين هو بهم؛ لمواجهة طرفٍ ثالثٍ قد يكون عدوًّا مشتركًا للطرفين، وقد يكون عدوًّا لأحدهما دون الآخر، وقد يكون هذا الطرف الثالث الذي تحالف الطرفان ضده غير مسلم، وربما كان مسلمًا.

والأخير قد يكون مسلمًا عدلًا، وقد يكون مسلمًا جائرًا ظالمًا، وقد يكون من البغاة.

ثم قد تكون راية هذا الحلف للدولة المسلمة، وتكون الكلمة العليا في هذا الحلف لها، وقد يكون العكس، كما أن الباعث على إقامة هذا التحالف يختلف، فقد يكون لتحقيق مصلحةٍ، وقد يكون لدفع مفسدةٍ، وقد يكون إكراهًا واضطرارًا.

ولكل حالةٍ من هذه الحالات حكمها الشرعي، وفي هذه الدراسة نستعرض حُكْم التحالف مع الكفار، والاستعانة بهم ضد كفارٍ آخرين، وأما الاستعانة بهم ضد مسلمين أو أهل بدعٍ، فهذا له بحث آخر، فنقول وبالله التوفيق:

التحالف مع الكفار والاستعانة بهم على قتال مثلهم إما أن يكون لأجل حاجةٍ عسكريةٍ فما فوقها -مادية أو معنوية- تحمل على ذلك، وإمَّا أن يكون ذلك التحالف لغير حاجةٍ.

فإذا كان التحالف مع الكفار والاستعانة بهم ضد كفارٍ آخرين لغير حاجةٍ، فقد ذهب أكثر الفقهاء إلى المنع منه، حيث اشترطوا لجواز التحالف مع الكفار والاستعانة بهم الحاجة إلى ذلك، أو الضرورة[٢].

أمَّا إذا كان التحالف مع الكفار والاستعانة بهم والقتال معهم ضد كفارٍ آخرين لحاجةٍ أو ضرورةٍ عسكرية -مادية أو معنوية- تحمل على ذلك، أي: في أعمال الجهاد الميدانية من صفٍّ وزحفٍ وفتحٍ، أو ما هو فوق ذلك مما هو منها في معنى الضرورة، فلهذه المسألة صورتان:

- **الصورة الأولى:** إذا كان ذلك تحت راية أهل الإسلام، أي: أن تكون القيادة والظهور لهم.
- **الصورة الثانية:** إذا كان ذلك تحت راية أهل الكفر، أي: أن تكون القيادة والظهور لهم.

فأما الصورة الأولى: وهي التحالف مع الكفار، والاستعانة بهم على قتال مثلهم تحت راية أهل الإسلام ؛ فإنَّ هذه الصورة في واقعنا المعاصر -كما لا يخفى على أحدٍ- أقرب إلى التنظير منها إلى التطبيق، فإنَّا نذكر الاختلاف فيها، وحكمها اختصارًا، حيث اختلف الفقهاء فيها على قولين:

---

(٢) ينظر: بدائع الصنائع (٤٣٠٧/٩)، وفتح القدير (٥٠٢/٥)، والبناية في شرح الهداية (٥٧٩/٦)، والبحر الرائق (٩٧/٥). فتح القدير (٥٢٠/٥)، والبناية في شرح الهداية (٥٧٩/٦)، والبحر الرائق (٩٧/٥). وينظر: تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (ص١٥٨، ١٥٩)، مغني المحتاج (٢٢١/٤)، وكتاب قتال أهل البغي من الحاوي الكبير (ص١٥٩- ١٦١)، وفتح الوهاب (١٧٣/٢)، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي (٦١/٨). وينظر: أحكام أهل الملل في الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل (ص٢٣٣)، المحرر في الفقه (١٧١/٢)، والمغني في الشرح الكبير (٤٤٦/١٠). وينظر: التمهيد (٣٥/١٢، ٣٦)، المدونة (٤٠/٢)، والبيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل للمسائل المستخرجة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٦/٣)، تحقيق: د. محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، والقوانين الفقهية، لابن جزي الغرناطي (ص١٢٧)، وأحكام القرآن، لابن العربي (٢٦٧/١، ٢٦٨)، والمحلى (٣٣٣/٧)، و(١١٣/١١، ١١٤).

منع ابن تيمية الاستعانة بالنُّصيريِّين في حماية الثغور الإسلامية، فقال: وأما استخدام هؤلاء في ثغور المسلمين، أو حصونهم، أو جندهم، فإنَّه من الكبائر، وهو بمنزلة مَن يستخدم الذئاب لرعي الغنم

القول الأول: مَنْع التحالف مع الكفار، والاستعانة بهم على قتال مثلهم.

وهذا الرأي قال به الإمام مالك، ونص عليه الإمام أحمد، وقال به بعض الشافعية كابن المنذر، وبعض الحنفية كالطحاوي، والكاساني، وهو قول ابن حزم الظاهري.

ولهذا، منع ابن تيمية الاستعانة بالنُّصيريِّين في حماية الثغور الإسلامية، فقال: «وأما استخدام هؤلاء في ثغور المسلمين، أو حصونهم، أو جندهم، فإنَّه من الكبائر، وهو بمنزلة مَن يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغشِّ الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شرٌّ من المخامر الذي يكون في العسكر، فإنَّ المخامر قد يكون له غرض مع أمير العسكر، وإما مع العدو، وهؤلاء مع الملَّة، نبيها ودينها، وملوكها وعلمائها، وعامتها وخاصتها، وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على وليِّ الأمر، وإخراجهم من طاعته»

القول الثاني: جواز التحالف مع الكفار والاستعانة بهم على قتال مثلهم، بشروطٍ وقيودٍ معينةٍ.

وبه قال أبو حنيفة وأصحابه، وحكي عن مالك، ونص عليه الشافعي، ورواية عند الحنابلة.

وقد أجمل هذه الشروط -التي قيد بها هذا القول- بدرُ الدين ابن جماعة في قوله: «لا يُسْتعان في الجهاد بمشركٍ أو ذميٍّ إلا إذا علم السلطان حسن رأيه في المسلمين، وأمن خيانتهم، وكان المسلمون قادرين عليهم لو اتفقوا مع العدو، فإذا وجدت هذه الشروط الثلاثة، جازت الاستعانة بهم.

وقيل: لا يجوز استصحابهم في الجيش مع موافقتهم العدو في المعتقد، فعلى هذا تكون الشروط أربعةً».

هذا مع اشتراط الحاجة أو الضرورة لذلك، وهو الذي نصَّ عليه غير واحدٍ كما تقدم.

وإذا كان المجال يَضيق عن استعراض أدلة الفريقين ومناقشتها، إلا أن القَدْر المتفق عليه أن مَن أجاز التحالف في هذه الصورة، فليس على إطلاقه، وإنما بشروط يَصعُب توافرها على الأقل في زماننا الراهن!

وهذه المسألة تتعلَّق بمباشرة أمور الحرب في ميادين القتال المباشر، أمَّا الاستعانة بالكفار في أمور الحرب مما لا يُعدُّ قتالًا؛ كالخدمة، والتدريب العسكري، فهي مسألة أخرى:

وإذا كان الأصل ألَّا تستعين الدولة الإسلامية بغير أهل الملَّة فيما يمكن أن يقوم به أهلها،

لاسيما ما كان منها ذا صلةٍ بالأمور العسكرية، إلا أنه قد يحتاج المسلمون إلى الاستعانة بغيرهم في أمور الحرب مما لا يُعدُّ قتالًا؛ كالخدمة، والتدريب العسكري.

فهناك أعمال كثيرة في أمور الجهاد مما ليس داخلًا في الأعمال القتالية يمكن الاستعانة بالكافر فيها.

وهذه الأعمال التي لا ولاية للكافر فيها على المسلم، وليست من الوظائف الدينية، ولا خطورة فيها على أهل الإسلام- يكاد يتَّفق الفقهاء على جواز الاستعانة بالكافر فيها عند الحاجة؛ إما لظهورها، وإمكان كشف الخيانة فيها، أو لتعلُّقها بمصلحةٍ ظاهرةٍ للكافر من أجرةٍ وحميةٍ، ونحو ذلك.

وأما الصورة الثانية: وهي التحالف مع الكفار على قتال مثلهم تحت راية أهل الكفر:

ومن ذلك مثلًا: الحرب الجارية حاليًا بين روسيا وأوكرانيا، وما يدور حول انضمام بعض الدول الإسلامية إلى أحد طرفي الحرب، ونصرة طرفٍ على الآخر.

وهذه المسألة تناولها الفقهاء تحت عنوان: قتال المستأمن أو الأسير المسلم للكافرين تحت راية الكافرين، فلو أن قومًا من المسلمين أُسَارى في بلاد الشرك، أو تجار، استعان بهم أصحاب تلك البلاد على قومٍ آخرين من المشركين، فهل يقاتلونهم معهم؟

إن هذه المسألة قد تختلف في بعض صُورها عن المسألة التي نحن بصددها؛ إذ إنَّ هذه تُشبه مسألة الْتحَاق المسلم للقتال مع جيش

المنظومة الباطشة التي أفرزتها الحرب العالمية لا تغفل الرابطة الدينية إلا عندما يتعلَّق الأمر بالمسلمين، بينما تستدعيها بجميع صورها وآليَّاتها ومضامينها ومقتضياتها عندما يتعلَّق الأمر بصراعاتها وحروبها ومواقفها، وليس أدلَّ على ذلك وأظهر من موقفها من الحرب الروسية الأوكرانية الأخيرة

الكفار؛ سواء اضطرارًا أو اختيارًا، فتعلُّقها أكثر بالْتحَاق فردٍ أو أفرادٍ معدودين بجيوش الكفار، والانخراط والاندماج التام فيها والقتال معهم، بينما الحديث في هذه المسألة عن تحالف فئةٍ من المسلمين -جماعة أو دولة- مع الكافرين؛ لقتال كفار آخرين، ويشمل ذلك انضمام دولة مسلمة لأحد الأحلاف المعاصرة؛ كحلف الناتو مثلًا، والذي تُتداول قيادته بين أعضائه، وبالطبع أغلبها دول كافرة.

وقد اختلف الفقهاء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: عدم جواز تحالف المسلمين مع المشركين، والقتال معهم تحت رايتهم.

وهذا قول الحنفية، والإمام مالك، والشافعي، وأحمد.

القول الثاني: جواز تحالف المسلمين مع المشركين، والقتال معهم تحت رايتهم.

ذكَره السرخسي في (شرح السير الكبير)، والبيهقي في (معرفة الآثار)، ولم ينسباه لأحدٍ

مُعيَّنٍ، ونسبه الدمشقي للشافعية، وهو قول ابن حجر الهيتمي.

ولا شكَّ أن مثل هذه التحالفات تؤدي إلى تقوية المشركين على المسلمين، وإلى إعزاز الشرك وإظهاره، وإلى المخاطرة بالنفس في سبيل تحقيق النصر للعدو، وإلى أن يقاتل المسلم تحت إمرة الكافرين، وكل ذلك ممنوعٌ لا يجوز، وهذا هو حُكم المقاتلة مع المشركين عند جماهير الفقهاء في حال الاختيار.

أمَّا في حالات الضرورة والإكراه، فأجاز فريقٌ من الفقهاء ذلك، وهم الحنفية والشافعية والحنابلة، ومَنَعه آخرون، وهم المالكية، ولهم أدلتهم في ذلك، يمكن مراجعتها في مظانها.

وقد اشترط جمهور الفقهاء لمعاونة المشركين في حال الضرورة شرطين، هما:

الأول: أن يكون المشركون مأمونين صادقين فيما وعدوا به، فلا يُعرَفون بالغدر والخيانة[٣].

والثاني: ألَّا يعاونوا على قتال المسلمين، فإذا طلب المشركون من فئةٍ مسلمةٍ أو دولةٍ مسلمةٍ أن يقاتلوا معهم دولةً مسلمةً أخرى، فلا يجوز لهم ذلك ولو أُكرهوا عليه[٤].

(٣) ينظر: الاستعانة بغير المسلمين في الجهاد الإسلامي، لمحمد شبير (ص٣٠٨).

(٤) ينظر: المرجع السابق (ص٣٠٨).

إشراقات

قال عامر بن عبد قيس:

آيات في كتاب الله إذا ذكرتهن لا أبالي على ما أصبحت أو أمسيت:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

[الأنعام: ١٧].

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

[فاطر: ٢].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

[الطلاق: ٧].

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾

[هود: ٦].

الدر المنثور (٥/٧).

المشروع الإسلامي لأهل السنة .. مايمنعه.. ومن يدفعه؟

د. عبد العزيز كامل

تشـير غالب أوضاع العالم اليـوم إلى أن المسـلمين يعيشـون مرحلة انتقالية فاصلة بين عصريـن: عصر اسـتضعافهم من قِبـل الطغاة الظالمين، وعصر خلاصهم ثم تمكينهم بالدين،

فالعـالم مقدم -والله أعلـم- على تغييرات جذريـة ، تُـؤْذن بأُفول نجـم إمبرطورية النفاق العلمانية التي طغت على مرحلة الجبر القهرية، والطغـاة العلمانيون لم يعد لهـم مايخدعون به أقوامهم، ولا ما يصمدون به أمام غضبة شعوبهم، ولم يعد هناك خيار فكري شرقي ولا غربي يمكن به استمرار الخداع، أو إدارة الصراع.

ولعلَّ مـا يُعين على فهم المرحلة الانتقالية التي يعيشها المسلمون: قول خاتم النبيين ﷺ: «**تَكُـونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَـاءَ اللَّـهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَـاءَ أَنْ يَرْفَعَهَـا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَـاءَ اللَّـهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ**

المرحلة الانتقالية بين حقبة الجبرية وعصر الخلافة الإسلامية وإن كانت ذات طبيعة قدرية.. إلا أن لها استحقاقات شرعية، تعرف من خلال استقراء نواميس السنن الإلهية وآثارها على طبيعة الصراع بين الحق والباطل

يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيًّا، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»[1].

فمراحل النبوة ثم الخلافة على منهاج النبوة،ثم مرحلة الملك العاض،كلها انتهت، والأمة تعش منذ أكثر من مئة عام في مرحلة الحكم الجبري القهري الذي ستتلوه مباشرة مرحلة العودة إلى الخلافة على منهاج النبوة.

والحكم الجبري الذي قد بدت معالم إفلاسه وضعفه بعد انكشاف خداعه وزيفه، يظهر جليًّا أنه يمر بمرحلة أخيرة من بقايا عهده.

والمرحلة الانتقالية بين حقبة الجبرية وعصر الخلافة الإسلامية وإن كانت ذات طبيعة قدرية.. إلا أن لها استحقاقات شرعية، تعرف من خلال استقراء نواميس السنن الإلهية وآثارها على طبيعة الصراع بين الحق والباطل.

ووفق هذه الاستحقاقات ينبغي أن يعمل العاملون للدين، مستيقنين بحقائق الأحكام الكونية القدرية، ومتعاملين معها بوسائل شرعية وعقلية، في مسار نهوض مدروس شرعًا وواقعًا.

وما لم يترجم الخواص المخلصون في الأمة الشروط والمقدمات الشرعية لنصرة الدين وتمكين المسلمين من خلال مشاريع مستقلة تتَّسم بالنصح والنضج؛ فسيظلون يدورون في حلقات الأوهام المفرغة، والتجارب المعادة والمعتادة بنتائجها المفزعة؛ سواء أكانوا دعاة أو مفكرين، سياسيين أو مجاهدين.

إن استحقاق وعود النصر بحسب الأحكام القدرية لها ارتباط باشتراط النزول على جملة كبيرة من الأحكام الشرعية، ومن أظهر الأدلة على ذلك: ما جاء في خطاب الوحي عن اشتراط نصر المسلمين لله شرعًا؛حتى ينصرهم الله قدرًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[2]، وهو ما عبَّر عنه إمام المفسرين الطبري بقوله: «يقول تعالى ذِكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، إن تنصروا الله ينصركم بنصركم رسوله محمدًا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به، وجهادكم إياهم معه لتكون كلمته العليا، ينصركم عليهم، ويظفركم بهم، فإنه ناصر دينه وأولياءه»[3].

ونصرة الرسول ﷺ -كما هو معروف- بنصرة الشريعة التي بُعث بها، والسنة التي أمر باتباعها.

ولهذا، فإن تحقيق المسلمين لمقتضى إيمانهم بالله ورسوله هو الأمر المشروط لانتصارهم بالإسلام،كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ

(١) [أخرجه أحمد (١٨٤٠٦)، وحسنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥)].

(٢) سورة محمد:٧.

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ١٩٣).

بالرغم من أهل السنة صاروا منذ عقود في واجهة أحداث الأرض، وأنهم قد اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها من كيانات الأعداء الذين لكل منهم مشروع أو مشروعات، تستهدفهم دينًا ودنيا، حاضرًا ومستقبلًا، إلا أن هؤلاء مع كل ذلك يظلون وحدهم لا يملكون لأنفسهم مشروعًا خاصًّا بهم، واضح المعالم، مدروس المراحل، ثابت الخُطى!

حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤] وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[٥]، وبدون نصرة الدين فلا نصر ولا تمكين، كما قال الله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾[٦] وملاك ذلك كله في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٧].

ومما استقر في أفهام العقلاء أنه ما من مشروع لتشييد بنيان أو بناء لكيان إلا كان لزامًا على العازمين عليه أن يؤسسوا للشروع في ذلك المشروع بدراسات وقياسات وحسابات؛ تستلهم أهم ما يتعلق بوسائل إنجازه وإنجاحه، وإلا فستظل الأماني بتحصيل المراد مجرد أحلام وأوهام.

وهكذا شأن المسلمين في أمر سَعْيهم لتمكين الدين، فهو أعظم مشروع لتعلقه بأخطر موضوع، وهو إقامة الشريعة المأمور بإقامتها ونصرتها.

إن من أعجب العجب أن المسلمين على وجه العموم، وأهل السنة منهم على وجه الخصوص، وبالرغم من أهل السنة صاروا منذ عقود في واجهة أحداث الأرض، وأنهم قد اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها من كيانات الأعداء الذين لكل منهم مشروع أو مشروعات، تستهدفهم دينًا ودنيا، حاضرًا ومستقبلًا، إلا أن هؤلاء مع كل ذلك يظلون وحدهم لا يملكون لأنفسهم مشروعًا خاصًّا بهم، واضح المعالم، مدروس المراحل، ثابت الخُطى!

ومع أن الجميع يتحدث عن التغيير، وضرورة المُضي إليه في السير؛ إلا أن القليل من يُدْرك أن التوجه نحو تغيير حقيقي لابد أن يترجم إلى برامج عمل، وخطط سير، وخطوات إنجاز، ضمن مشروع من الجميع وللجميع، لمواجهة ما يتعاون فيه الجميع من الأعداء المعتدين الذين يستهدفون هذا الدين وأهله وحرماته ومُقدَّراته.

وما لم يكن لهؤلاء المستهدفين من أهل الإسلام والسُّنة مشروعهم القائم على الحق والسُّنة للخروج من أَسْر جميع أعدائهم، فسيظلوا مجرد أجزاء في مشاريع غيرهم.

إنني أحسب أن ما مرَّ من تجارب ومحاولات تغيير على مدى الأربعين عامًا الماضية من عمر ما اصطُلح على تسميته بـ(الصحوة الإسلامية) في بدايات القرن الهجري الذي نعيشه؛ كانت تفاعلاته تدخل بسلبياتها وإيجابياتها ضمن حالة تهيئة للمرحلة المقبلة في حياة الأمة، فالأعوام

(٤) سورة الروم:٤٧.

(٥) سورة غافر:٥١.

(٦) سورة آل عمران:١٦٠.

(٧) سورة الرعد:١١.

الأربعون التي يُحسب بها عمر الجيل عادةً، مثَّلت عُمر ذلك الجيل الذي انتعشت بجهوده تلك الصحوة.

وتجارب هذا الجيل -رغم ما اكتنفها من سلبيات وآفات- مثلت انتقالاً بدعوة الإسلام من واقع التأطير النظري الذي تأسَّس أكثره قبلها، إلى مرحلة التفعيل العملي الذي تطور خلالها.

وكان لا بد خلال هذا المسير العسير من حدوث هنات وسقطات، لكنها لا تنفي أبدًا صدق وتصديق الوعد بتجديد الدين على رأس كل قرنٍ، كما أخبر سيد الأولين والآخرين ﷺ في قوله: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد دينها»، فالتجديد قد حصل لا محالة، وهو لم يخرج بحالٍ عن حالة البعث الدينية التي اصطُلح على تسميتها في عصرنا بـ(الصحوة الإسلامية).

والسؤالات المهمة التي ينبغي أن تثار بين خاصة الأمة من علماء ومفكرين ودعاة ومثقفين في هذه الحالة التي تعيشها الأمة هي:

- لماذا نحن دون غيرنا من الأمم اقتصرنا على حمل منظومات نظرية ومدلولات علمية دون أنظمة ودول أو قوى عملية عالمية تحملها وتعمل على نصرها ونشرها؟

- ولماذا نظلُّ محاصرين بالمشروعات المعادية التي تتداعى بها علينا الأمم دون أن نتداعى نحن لمواجهة المشاريع المجتمعة بمشروع جامع؟

- وما الذي يمنع من الشروع الجاد في وضع أُسُس هذا المشروع ؟ وما العقبات في وجه إخراجه من أدراجه؟

والجواب على ذلك كله: أن أسباب ذلك بحسب النظر في واقع الأمة المعاصر؛ تعود إلى ثلاثة أمور:

أولها: عدم الاجتماع العام لمكونات الأمة على محكمات المنهاج الصحيح المشروط للنهوض والتمكين وتحقيق النصر بشقَّيه: نصر الحجة والبيان، ونصر السيف والسنان.

ثانيها: فقدان أو ضعف تأثير القيادة العلمية العالمية؛ بصورة عملية في جمع كلمة المسلمين قدر المستطاع على كليات ذلك المنهاج المذكور.

ثالثها: تفرق المسلمين في أودية الحزبيات والعصبيات والعنصريات المفرقة لكيان الأمة الواحدة المأمورة بالاعتصام بحبل الله منهجيًّا وعضويًّا.

ولا علاج لتلك الكوائن والنوازل الثلاث إلا بأضدادها الثلاثة:

وأولها: الانطلاق من (منهاج راشد) يمثله سبيل الفرقة الناجية والطائفة المنصورة بعد استعادته في صور تقريبية جامعة سهلة، كي يجتمع جمهور الأمة على محكماته وثوابته، وبحيث يكون ذلك تحصينًا للأجيال الناشئة من غوائل الغلو أو مزالق التفريط في النواحي الاعتقادية والتعبدية والسلوكية.

وثانيها: السعي نحو إيجاد (كيان قائد) بتفعيل ريادة العلماء للأمة بالمنهاج المذكور، وذلك من خلال إعادة الاعتبار لـ (ولاية الأمر العلمية) التي تسبق في الأهمية (ولاية الأمر السياسية) حيث قال المحققون من المفسرين في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[8] أن المَعْني بولاة الأمر في الآيات: العلماء، ثم الأمراء.

وثالثها: العمل على تكوين (تيار رائد) يحمل هذا المنهج، ويمتثل له، ويدافع عنه، ويكون قادرًا به على تخطي مخاطر الفرقة، وتجنب عوامل التحزب والتعصب؛ ويصبح ذي ولاء عام لكل المسلمين، لا يتحزب إلا من معه الحق منهم، ولا ينأى عن التعاون في المتفق عليه معهم.

وهذه المعالم الثلاثة (منهاج راشد)، (وكيان قائد)، و(تيار رائد)، لا نرى إمكانية السير بها والعمل على أساسها إلا من خلال مشروع جامع لأهل السنة والجماعة، يغطي الجوانب المنهجية والاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والإعلامية، ضمن خطط مدروسة بطرق تخصصية، وتتَّسم بتحرِّي المشروعية والواقعية معًا، بمعنى التزام ما خطَّه الشارع، وفهم ما يفرضه الواقع، وهو ما بيَّنه الإمام ابن القيم رحمه الله عندما أشار إلى أن المصلحين يحتاجون إلى نوعين من الفهم:

«أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا. النوع الثاني: فَهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان قوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمَن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك، لم يَعدم أجرين أو أجرًا»[9].

لقد أمر الله تعالى أولياءه المؤمنين بأن يأخذوا ما آتاهم بقوة، وذلك لن يكون إلا من خلال الإعداد لما استطاعوا من قوة بكل ما تعنيه القوة من معانٍ نظرية ومادية، وهذا لن يتحقق إلا من خلال مشروع أو مشروعات لتغيير ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم، ويغير الدنيا بسببهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[10].

وإذا لم يكن أهل العلم والفكر والجهد والدعوة هم أهل الصفوف الأولى في هذه المهمة الأولى، فمَن لها؟ لا شكَّ أنهم قبل غيرهم هُم الذين لها وأهلها.

إننا لو تصورنا العمل لإنجاز هذا المشروع من صورته النظرية؛ يماثل عملًا لإنجاز رسالة أكاديمية كبيرة، ذات أبواب تحتها فصول، وتحت الفصول مباحث ثم مطالب ثم فروع، لأمكن الشروع في إنجاز هذا المشروع بصورة علمية أكاديمية، وعناوين الأبواب الرئيسية (الرسالة/ المشروع) هي الجوانب والأبعاد الأساسية لأي مشروع جاد، يستحق بأن يوصف بأنه "إسلامي"

(٨) سورة النساء:٥٩.

(٩) إعلام الموقعين (؟؟؟).

(١٠) سورة الرعد: ١١

" سني" "عالمي".

وأهم الجوانب والأبعاد التي ستأخذ أبواب في تلك الرسالة المشروعية هي:

١- **البعد المنهجي:** حيث إن التأسيس على المنهاج الصحيح الثقائم على الأصول والثوابت المحكمة، يمثل الأرض الصلبة، ذات القواعد المتينة، التي سترفع فوقها بقية الطبقات والأبعاد والجوانب.

٢- **البعد الحضاري:** وهو الذي يستلهم القواعد الكبرى التي تميزت به الحضارة الإسلامية في الماضي، والتي لابد أن يتسم بها أي بناء حضاري في الحاضر أو المستقبل، وهو ما يشكل في النهاية مكونات الهُوية الإسلامية التي تميز أمتنا عن بعض الأمم.

٣- **البعد الاستراتيجي:** ويقوم على وضع الأسس العامة والقواعد الحاكمة التي لايصلح تجافيها أو التفريط فيها من حيث مراعاة النظريات والنظرات الاستراتيجية لمشروع التغيير، على المستويات القريبة والمتوسطة والبعيدة، وهذا لايسند إنجازه بطبيعة الحال إلا لأهل التخصص في العلوم الاستؤاتيجية والموازنات الدولية.

٤- **البعد السياسي:** حيث إن السياسة والعمل بها، وإن كانت له قواعده العصرية، فإن ذلك لا ينبغي أن يخرج عن المسلمات المتفق عليها في السياسة الشرعية والدمج بينها على طريقة المقاربة بين الأصالة والمعاصرة، هو السبيل للخروج من أسر الشعار العلماني الشائه والمشين، الذي ظل يرفع قولاً وفعلاً على ألسنة السياسيين العلمانيين: ((لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين)).

٥- **البعد الاقتصادي:** وله أيضًا أهله من أهل التخصص فيما استقر وصفه ب (الاقتصاد الإسلامي) حيث تنبضبط المعاملات كلها في ذلك المجال بالقواعد المفرقة بين الحلال والحرام، بما يوظف ثروات الأمة لصالح شعوبها ويوضح كيفية استفادة الأمة بمقدراتها.

٦- **البعد الإعلامي:** فالإعلام صار علمًا وصناعة وأداة تشكيل للوعي، وتسيير لنظريات التغيير، والإعلاميون المتخصصون من أهل الشأن في رسم معالم ذلك البعد المعبر عن فريضة البلاغ للرسالة وواجبات إيصال الدعوةعلى كل مستوياتها إلى آفاق الأرض وأعماق القلوب.

٧- **البعد التعليمي والتربوي:** وهو الخاص بتأهيل الأجيال، والتأثير في أصحاب التأثير، وفق القواعد المرعية في التعليم السليم والتربية السوية.

وكما أسلفت، فإن وضع معالم هذا المشروع نظريًّا، ينبغي أن يكون من الجميع وللجميع بحيث لا تطغى على صبغته نزعة حزبية، ولا لوثة عنصرية، ولا سطوة رسمية.

ولا شك أن هذه الأبعاد السبعة في أبوابها وفصولها، هي المفترض أن تشكل بعد إنجازها الخطوط العريضة لمشروع واقعي قابل للإقامة في وضع الأمة العام، أو في بعض الأوضاع الخاصة التي تراعى فيها السعة والمرونة، بما يتناسب مع اختلاف ظروف الزمان والمكان والإنسان.

والله الهادي إلى سواء السبيل.. وهو مولانا ونعم الوكيل

ناتو عربي- شرق أوسطي
الأهداف، الأجندات، الآثار.

بقلم أنور قاسم الخضري

مع صعـــود إدارة "جو بايـــدن" للبيت الأبيض (يناير ٢٠٢١م) دخلـــت العلاقـــات الأمريكية الخليجية في حالة شـــدٍّ وجـــذب، وباتت هناك عدَّة أزمـــات تواجه إدارته. فمِـــن ناحية الحرب الرُّوســـية- الأوكرانية، والتي تمثِّل تحدِّيًا حقيقيًّا للنِّظام العالمـــي الذي تتزعَّمه واشـــنطن، ومِن ناحية أخرى حالة الواقـــع الاقتصادي للولايات المتَّحدة، والذي تأثَّر سلبًا بفعل جائحة "كورونا"، ثمَّ بفعل آثار الحرب الرُّوسية- الأوكرانية، وارتفاع أســـعار النَّفط، وثالثًـــا فشـــل الإدارة الأمريكية الحاليـــة في إقناع طهـــران للعـــودة إلى الاتِّفاق النَّووي. هذه الأزمات دفعت إدارة البيت الأبيض مجـــدَّدًا للتَّوجُّه إلى المنطقـــة، وخصوصًا دول الخليج، وجرى الإعلان عن قمَّة رئاســـية تضمُّ دول الخليج، ومصر والأردن والعراق، والرَّئيس الأمريكي "جو بايدن".

تـــردَّد بالتَّزامن مـــع انعقاد هـــذه القمَّة، التي اســـتضافتها مدينة جدَّة، بالسُّـــعودية، منتصف يوليـــو ٢٠٢٢م، الحديث عن إمكانية تشـــكيل "حلف عســـكري"، شرق أوســـطي، على غرار حلف "الناتو"، يضمُّ إسرائيل ودولًا عربية أخرى. وهذه ليســـت المرَّة الأولى التي تُطرح فيها فكرة

تحالف شرق أوسطي؛ إذ تعود مساعي الولايات المتَّحدة لتحقيق هـذا الهدف إلى بداية الحرب الباردة إزاء الاتِّحاد السُّوفييتي، في سعيها لاحتواء الشِّـيوعية والمدِّ الاشـتراكي الثَّوري بالمنطقة. وظلَّ هذا السَّـعي متواصلًا بهدف إيجاد اتِّفاقية أمنية جماعية.

وقد جرى تجديـد طرحها في عهـد الرَّئيس الأمريكي الأسـبق، "باراك أوباما"، حين اجتمع للمـرَّة الأولى بقـادة دول الخليـج في "كامب ديفيـد"، واتَّفـق معهـم على دوريـة عقد هذه الاجتماعات، والعمل عـلى خلق جبهة واحدة متَّحدة، لمواجهة التَّحدِّيات المشـتركة، سـواء كانت إيران أو التَّنظيـمات "الإرهابية". كما دعا الرَّئيس الأمريكي السَّـابق، "دونالد ترامب"، إلى مشروع حلـف "ناتو عـربي" أو "تحالف شرق أوسطي إستراتيجي"، يضمُّ دول الخليج العربي، بالإضافة إلى مصر والأردن، بهـدف "التَّصدِّي للتَّوسُّـع أو العدوان أو التَّهديـدات الإيرانية"، بالإضافـة إلى التَّهديـدات "الإرهابية" المحيطة بالمنطقة بشكل عام.

نماذج للتَّحالفات العسكرية السَّابقة:

"حلف بغداد" ضدَّ الاتحاد السوفيتي:

في منتصف خمسينيَّات القرن الماضي، أُعلن عن إقامة "حلف بغداد"، وضمَّ بريطانيا والعراق وتركيا وباكسـتان وإيران، وذلـك بهدف إيقاف "المـدِّ السُّـوفييتي" أثناء الحرب البـاردة. وقد دعمت واشـنطن الحلف، لكنَّهـا لم تنضم إليه لتجنُّب اسـتفزاز إسرائيل أو مصر أو السُّعودية. وقـد ظهر في الوقت ذاته الـذي ظهر فيه حلف "النَّاتو"، و"منظَّمة معاهدة جنوب شرق آسـيا"، حيث حاولت تلك التَّحالفـات إحاطة الاتِّحاد السُّـوفيتي بسلسـلة مِن المنظَّمات العسـكرية الموالية للغرب. وقد فشل الحلف في الحصول على دعم واسع النِّطاق مِن دول الشَّرق الأوسط، حيث افتقر إلى هوية مشـتركة، فتركيا ديمقراطية قومية، وإيران ملكية شيعية، وباكستان دولة سنِّية ناشئة، والعراق خرج مِن قبضة الاستعمار مؤخَّرًا.

بانقلاب ١٩٥٨م، الذي أطاح بالحكم الملكي في العراق، أعلن عبدالكريم قاسم عن انسحاب العراق مِن الحلـف الذي لم يكمل عامه الرَّابع، فتغيَّر اسـمه إلى "الحلف المركـزي"، وانتقلت مكاتبـه إلى تركيا. وفي عام ١٩٧٩م انسـحبت إيران بعد ثورتها الخمينية، كما توقَّفت باكسـتان عن التَّعاون.

جامعة الدُّول العربية و"قوَّة الرَّدع العربية":

أعلـن عن قيام جامعة الـدُّول العربية في ٢٢ مارس ١٩٤٥م، بمباركـة بريطانية؛ وقد حاولت الدُّول الأعضاء تبنِّي دور عسكري للجامعة، لكن فشـلت في ذلك. وفي حين دعا ميثاق الجامعة إلى التَّعاون العسـكري بين الدُّول الأعضاء، إلَّا أنَّ ذلك تأخَّر حتَّى توقيع معاهدة الدِّفاع المشترك والتَّعـاون الاقتصادي عـام ١٩٥٠م، إذ نصَّت المعاهدة على قيام الـدُّول الأعضاء بالدِّفاع عن بعضها البعض ردًّا على العدوان. (كانت الكويت مهمَّة الرَّدع العسكرية الرَّسمية الوحيدة للجامعة العربية عام ١٩٦١م، عندما ساعدت قوَّة قوامها (٣٣) ألف جنـدي، معظمهم مِن مصر، في منع ضمِّ العراق لها).

وفي عام ١٩٧٦م، أعلنت الجامعة عن تشكيل قيادة عسكرية عربية موحَّدة، وجرى نشر قوَّة قوامها (٣٠) ألف جندي، يُطلق عليها اسم "قوَّة الردع العربية"، في لبنان، خلال الحرب الأهلية، لكنَّها فشلت بشكل ملحوظ. وفي عام ٢٠١٥م، شكَّلت الجامعة قوَّة مشتركة مقرَّها مصر، قوامها (٤٠) ألف جندي مِن دول مختلفة، لكن لم يعد لهذه القوَّة أي وجود.

مجلس التَّعاون الخليجي و"درع الجزيرة":

تأسَّس مجلس التَّعاون الخليجي عام ١٩٨١م، عقب اندلاع الحرب العراقية الإيرانية، لتوفير قوَّة دفاع موحَّدة ضدَّ إيران. وقد اتَّخذ المجلس قرارًا تشكيل قوَّة "درع الجزيرة"، في نوفمبر ١٩٨٢م، وتألَّفت في البداية مِن (٥) آلاف جندي فقط. وقد تمركزت عام ١٩٨٦م في حفر الباطن شمال شرق السُّعودية؛ وعندما انتهت الحرب العراقية الإيرانية -عام ١٩٨٨م- ظلَّت تلك القوَّة رمزية إلى حدٍّ كبير. في عام ١٩٩٠م فشلت قوَّات "درع الجزيرة" في ردع العراق عن غزو الكويت؛ لكنَّها تمكَّنت في عام ٢٠١١م، بقيادة السُّعودية والإمارات، في دعم نظام البحرين ضدَّ الحراك الثَّوري الشَّعبي الذي انطلق في المنامة.

ورغم الإنفاق الدِّفاعي الضَّخم لدول الخليج، وحجم تسلُّحها، بمنظومات بريَّة وجويَّة وبحريَّة متطوِّرة، إلَّا أنَّها فشلت في دمج الأجهزة العسكرية منذ بدء المناقشات حول هذا الموضوع في عام ١٩٩٣م. وقد وقَّعت دول الخليج اتِّفاقية دفاع مشترك عام ٢٠٠٠م، لمحاولة بناء تعاون عسكري، واستمرَّت الجهود خلال عامي ٢٠٠٢م و٢٠٠٣م؛ وفي عام ٢٠٠٥م، اتَّفقت قيادة دول الخليج على زيادة القوَّة المشتركة، ودمج أسلحة جديدة لتوسيع قدرات "درع الجزيرة".

"التحالف العربي":

وهو تحالف عسكري أعلن عنه في ٢٦ مارس ٢٠١٥م، لمواجهة تهديد الحوثيِّين لليمن، وأعلن عن مشاركة عدَّة دول خليجية وعربية وإسلامية فيه، مع وجود دعم لوجستي مِن قبل بريطانيا والولايات المتَّحدة للتَّحالف. غير أنَّ قيادة الرِّياض وأبو ظبي للحرب دفعت بعدد مِن الدُّول للانسحاب والخروج، أو تجميد العضوية، أو تخفيض مشاركتها أو حصرها في جوانب هامشية.

تحالفات ظرفية:

سجلت التَّحالفات العربية الظَّرفية قصص فشل عدَّة، فقد خاضت الدُّول العربية حروبًا عدَّة ضدَّ إسرائيل، في الأعوام ١٩٤٨م و١٩٦٧م و١٩٧٣م. وفي كلِّ حرب مِنها تشكَّل تحالف مِن دول عربية؛ وكانت أغلب تلك التَّحالفات مرتجلة، وقصيرة العمر، وتفتقر إلى أيِّ تكامل أو تنسيق رئيس.

أمَّا في التَّحالفات الدُّولية الظَّرفية التي يتطوَّع العرب بالمشاركة فيها، كما جرى في التَّحالف الدُّولي بزعامة الولايات المتَّحدة في تحرير الكويت، أو الحرب ضدَّ العراق، وضدَّ أفغانستان، فقد حقَّق التَّحالف الدُّولي أهدافه بدعم خليجي وعربي، ولصالح أجنداته هو الخاصَّة!

خلاصة هذه التَّجارب السَّابقة:

كان التَّنافس والنِّزاع والصِّراع الإقليمي هو السِّمة الغالبة على القرن العشرين في المنطقة العربية، سواء بين الدُّول الملكية، أو الدُّول الجمهورية، أو الملكية والجمهورية؛ فقد سادت المنطقة حالة سيولة سياسية، إذ شهدت جهود مقاومة للاستعمار والتَّحرُّر مِن براثنه، ومدًّا ثوريًّا ضدَّ الأنظمة الملكية، وتحوُّلًا في الأفكار والولاءات، وانقلابات عسكرية، وتجارب وحدة وانفصال. وبالتَّالي، وفشلت كلُّ محاولات التَّحالف التي قام بها العرب، وظلَّ الفشل هو السَّائد في المشهد العام بالمنطقة، عدا عن تحالفات انخرطت فيها الدُّول العربية لصالح الدُّول الغربية.

"ومِن خلال دراسة المحاولات السَّابقة والمستمرَّة للتَّعاون الدِّفاعي الإقليمي، يظهر عاملان مهمان ومستمرَّان يتسبَّبان في حالة شبه دائمة مِن عدم التَّعاون، وهما انعدام الثِّقة، وتباين الأهداف بين دول الشَّرق الأوسط. بحسب موقع (ريال كلير ديفينس) الأمريكي المتخصِّص في الشُّئون العسكرية".

لكن، وعوضًا عن إيجاد صيغة للتَّحالف العربي، كان الغرب يوجد صيغًا لتوظيف هذه الدُّول في تحالفاته هو، ولصالح أجنداته ومصالحه في المنطقة أو على المستوى الدُّولي. فقد شهدت المنطقة ترتيبات عسكرية وأمنية خلال القرن الماضي، صنع الغرب فيها أو أفاد مِن عدَّة تهديدات؛ منها:

تهديد الاتِّحاد السُّوفيتي والمعسكر الشَّرقي، مِن خلال المدِّ الشِّيوعي اليساري الذي اجتاح المنطقة.

تهديد المدِّ القومي المصري (خلال ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الماضي)، بزعامة جمال عبدالنَّاصر.

تهديد الثَّورة الإيرانية (خلال ثمانينيَّات القرن الماضي)، بعد وصول آية الله الخميني للسُّلطة وقيام نظام طائفي.

تهديد نظام العراق (خلال تسعينيَّات القرن الماضي)، بزعامة صدَّام حسين وقيادة حزب البعث.

تهديد القاعدة (خلال العشرية الأولى للقرن الحالي)، واستثمار الولايات المتَّحدة لأحداث ١١ سبتمبر.

تهديد الثَّورات الشَّعبية وتنظيم "الإخوان المسلمون" (خلال العشرية الثَّانية للقرن الحالي)، واندفاع الأنظمة في ثورة مضادَّة خلقت فوضى عسكرية وأمنية في المنطقة.

وقد دفعت كلُّ هذه المحطَّات الدُّول العربية للارتهان للغرب في:

مجال الحماية والدِّفاع عن الأنظمة الحاكمة.

الجوانب العسكرية والتَّسليح، حيث أصبح الغرب هو المهيمن غالبًا على سوق السِّلاح والتَّدريب والخدمات في المنطقة.

التِّقنيات والدَّعم اللُّوجستي التكنولوجي العسكري.

الجوانب الأمنية والاستخباراتية وارتباط الأجهزة العربية بالأجهزة الغربية كتابع وموظَّف.

السِّياسات الاقتصادية والمالية عمومًا.

هذا فضلًا عن أنَّ هذه المحطَّات عملت على:

تفكيك بنية الوطن العربي عمومًا، وتعطيل الاتِّفاقات الدِّفاعية والأمنية المشتركة، وارتهان المنطقة للقيادة الخارجية.

تعزيز الوجود العسكري والأمني للدُّول الغربية (بريطانيا، الولايات المتَّحدة، فرنسا)، على أراضي الدُّول العربية في شكل قواعد وقوَّات ومعدَّات ومناطق مراقبة.

ناتو عربي أم شرق أوسطي:

أعلن العاهل الأردني عبدالله الثَّاني -في وقت سابق- عن تأييده تشكيل تحالف عسكري في الشَّرق الأوسط، مشابه لحلف شمال الأطلسي "النَّاتو"، وبات الحديث عن "ناتو عربي" أو "شرق أوسطي" متصدِّرًا القنوات الفضائية والصُّحف العربية والدُّولية، خاصَّة قبيل زيارة الرَّئيس الأمريكي الحالي الأخيرة للمنطقة.

وبحسب بيان صدر مِن البيت الأبيض، بخصوص القمَّة المعلن عنها، فإنَّ الزِّيارة جزء مِن ضغط أمريكي لبناء تحالف أمني- اقتصادي أوسع، يضمُّ دولًا عربية وإسرائيل. وقد سبق هذا التَّوجُّه، توجُّه آخر هدف لتطبيع دول المنطقة مع الكيان الصُّهيوني، وتوقيع اتِّفاقات "أبراهام" التي رعتها إدارة الرَّئيس الأمريكي السَّابق، "دونالد ترامب"، في ٢٠٢٠م، بين الإمارات والبحرين والكيان الصُّهيوني.

في المقابل عاشت المنطقة مساعٍ مِن عدَّة أطراف، ولأهداف متباينة، لتصفير المشكلات في المنطقة، حيث جرى تقارب قطري سعودي إماراتي مصري، كما جرى تقارب تركي سعودي مصري إماراتي، وهناك مباحثات سعودية إيرانية تتمُّ عبر وسطاء عراقيين وعُمانيين. وقطر تحاول استضافة محادثات أمريكية إيرانية بشأن الملف النَّووي الإيراني.

هذه الحالة مِن النَّشاط والتَّحرُّك الدُّبلوماسي في المنطقة يشي -كما جرت العادة- بأنَّ المنطقة تشهد تهيُّؤًا ما لحدث ليس بالسَّهل، يجري الإعداد له. البعض ينظر له في بعد إقليمي يتعلَّق بملف التَّهديدات الإيرانية، والبعض يراه باتِّجاه دمج "إسرائيل" كقوَّة عسكرية وأمنية في المنطقة؛ والبعض يربط بينها وبين التَّهديدات خارج النَّسق الإقليمي، فمواجهة الولايات المتَّحدة للصِّين وروسيا باعتبارهما باتا يمثِّلان تهديدًا إستراتيجيًّا لها بات يتطلَّب صناعة أحلاف واسعة، وخاصَّة في منطقة الثَّروات النَّفطية والممرَّات المائية. وبحسب موقع "ذا ناشيونال"، الأمريكي، فإنَّ الغزو الرُّوسي لأوكرانيا دفع قادة حلف شمال الأطلسي "النَّاتو" في اجتماعهم في إسبانيا إلى التَّركيز على مواجهة نفوذ موسكو المحتمل في منطقة الشَّرق الأوسط، خاصَّة بعد الانسحاب الأمريكي مِنها تدريجيًّا.

وفي حال جرى تشكيل هذا الحلف فإنَّه سيدفع باتِّجاه انخراط دول الخليج ومصر والأردن في علاقات مباشرة مع إسرائيل (أمنية وعسكرية)، ومحاصرة قضية فلسطين، ومِن ثمَّ القضاء عليها، التزامًا بأيِّ معاهدات واتِّفاقات ثنائية قد يجري التَّوقيع عليها. فإسرائيل حريصة على تعزيز أمنها الدَّاخلي أكثر مِن البعد الإقليمي الذي بات لا يشكِّل لها أيَّ تهديد في ظلِّ ما وصلت إليه شعوب المنطقة ودولها. وعدا عن

ذلك فإنَّ هذا التَّحالف مِن شأنه أن يعمل على زيادة الاستقطاب الطَّائفي في المنطقة، بل وتوزُّع قوى المنطقة السُّنِّية بين محوريـن: إسرائيلي وإيـراني! مع ما سـيواكب ذلك مِن استنزاف لثروات ومقدَّرات دول الخليج النَّفطية والمالية.

إنَّ التَّحالف شرق- أوسطي سيخدم أجندة إسرائيل والولايات المتَّحدة الأمريكية بالدَّرجة الأولى، وغاية ما سيقدِّمه لدول الخليج تطمينات إزاء مطالبها الأمنيـة، خاصَّة مع تنامي القدرات العسكرية الإيرانية، وتعنُّتها في الملف النَّووي، وتمدُّدهـا في المنطقـة؛ لذا سبق القمَّـة لقاء مسئولين عسكريِّين أمريكيِّين نظرائهم في كلٍّ مِن إسرائيل والأردن ومصر، وعدَّة دول خليجية، بشرم الشَّيخ بمصر. ونسبت صحيفة "وول ستريت جورنال" الأمريكية، التي نشرت الخبر، إلى مصدر مطَّلع القول: إنَّ الاجتماع تناول استكشاف سبل التَّنسيق ضدَّ تنامي قدرات إيران الصَّاروخية، وبرنامجها للطَّائرات المسيَّرة.

هناك مَن يقول أنَّ التَّحالف يستهدف تنظيم "داعش"، إذ يرى كبير المحلِّلين في معهد أبحاث السِّياسة الخارجية، "مايكل ستيفنز"، أنَّ "مهمَّة النَّاتو هي توفير غطاء للتَّحالف المناهض لتنظيم الدَّولة الإسلامية (داعش)، الذي بدأ ينفد، خاصَّة وأنَّ هناك معارضة طويلة الأمد للوجود العسكري الأمريكي في العراق والمنطقة". وهناك مَن يرى بـأنَّ التَّحالف يأتي في إطـار محاولة كبح زيادة أسعار الطَّاقة، وبالأخصِّ في الدَّاخل الأمريكي، تحت وطأة الحرب الرُّوسية- الأوكرانية، ولضمان تدَّفق المزيد مِن النَّفط للأسواق العالمية. وهذه جميعًا تعليلات بعيدة جـدًّا، وثانوية، ويمكن تحصيلها بشكل أسهل وأيسر مِن هذا الإخراج.

وفي تصريحات أدلى بهـا الرَّئيس الأمريكي، قبيل القمَّـة في ١٤ يونيـو المـاضي، أكَّد أنَّ الأمن القومي لإسرائيل هو سبب رئيس لزيارته إلى المنطقة، حيث سيعقد "اجتماعًا كبيرًا" في السُّعودية، وأنَّ أمر الزِّيارة "يتعلَّق بالأمن القومي لإسرائيل، وبقضايا أكبر بكثير مِن الارتباط بقطاع الطَّاقة".

كما أكَّد، في كلمته أمام قادة الدُّول التِّسع، أنَّ بلاده لن تبتعد عن المنطقـة، ولن تتخلَّى عنها، ولن تترك فراغًا تملؤه الصِّين أو روسيا أو إيران، مشدِّدًا على عدم السَّماح لطهران بامتلاك السِّلاح النَّـووي؛ متعهِّدًا بتعزيـز الدِّفاعـات الجوية، والإنذار المبكِّر، لمواجهـة التَّهديدات الجوية في المنطقـة، وبعدم السَّـماح للقوى الخارجية بالتَّضييق عـلى الممرَّات المائيـة في المنطقة. وأضـاف: "لدينا العزيمة لمواجهـة التَّهديدات الإرهابية في المنطقة، وسـنوفِّر الدَّعم لحلفائنا في المنطقة لمواجهة الإرهاب".

وفي بيان صدر عقب القمَّـة، أكَّد قادة الدُّول -المجتمعون في جدَّة- على دعمهم لضمان خلو منطقة الخليج مِن أسلحة الدَّمار الشَّامل، ومركزية الجهود الدُّبلوماسية لمنع إيران مِن تطوير سلاح نووي، ودعم الجهود الدُّبلوماسية الهادفة لتهدئة التَّوتُّرات الإقليمية، وتعميـق تعاونهم الإقليمي الدِّفاعي والأمني والاسـتخباري، وضمان حرية وأمن ممرَّات الملاحة البحرية.

ختامًا:

يرى الدَّكتور أحمد سيِّد أحمد، الخبير بمركز الأهرام للدِّراسات السِّياسية والإستراتيجية (القاهرة)، أنَّ هذا التَّحالف يواجه تحدِّيات كبيرة حول إنشائه، "فليس هناك اتِّفاق عربي، أو رؤية شاملة أو موحَّدة، حول وجوده، وأن يضمَّ دولًا عربية إضافة إلى إسرائيل والولايات المتحدة. ومَن يسعى لإنشائه يستهدف في الأساس التَّهديدات الإقليمية، وخصوصًا الإيرانية، لكن حتَّى الآن لا يوجد ثمَّة إجماع حول الأمر".

وقد قال وزير الخارجية المصري، سامح شكري، في مؤتمر صحفي مشترك مع نظيره البحريني، عبداللَّطيف الزِّياني: إنَّ فكرة إنشاء تحالف عسكري عربي على غرار حلف النَّاتو، خلال زيارة الرَّئيس الأمريكي للسُّعودية، ليست مطروحة على الطَّاولة الآن. وأكَّد أنَّ "إنشاء تحالف أو تنظيم قانوني أمر يجب أن يسلك طريق التَّشاور، وليس مقترحًا في الوقت الحاضر".

كما قال وزير الخارجية الأردني، أيمن الصَّفدي، في مقابلة مع صحيفة "النَّهار العربي" اللُّبنانية: "لم يطرح علينا ناتو بمعنى ما قيل في الإعلام، لا يوجد حديث حول منظومة دفاعية إقليمية تكون إسرائيل جزءًا منها"؛ وأكَّد على أنَّ التَّحالف في مواجهة إيران ليس مطروحًا، مضيفًا أنَّ ما طرح بخصوص تحالف عربي تشارك فيه تل أبيب لمواجهة طهران لم يسمع به الأردن، ولم يطرح على المملكة.

وقال وزير الخارجية السُّعودي، فيصل بن فرحان، في مؤتمر صحفي عقب قمَّة جدَّة، إنَّه "لا يوجد شيء اسمه ناتو عربي"، مؤكِّدًا أنَّ قمَّة جدَّة لم تناقش "التَّحالف الدِّفاعي" مع إسرائيل ضدَّ إيران.

وفي ظلِّ التَّصريحات الرَّسمية المتضاربة بشأن الجهة التي يتوجَّه لها هذا الحلف، خاصَّة رفض عدد مِن الدُّول العربية أن يتوجَّه هذا الحلف تجاه إيران، تظلُّ فكرة هذا الناتو الإقليمي غير مبلورة بشكل واضح. خاصَّة وأنَّ بعض الدُّول المعتبر وجودها فيه لم تعلن حتَّى الآن عن أي علاقة مع "إسرائيل" التي يفترض أن تكون عضوًا في هذا "النَّاتو". وفي حين تتَّجه رغبة النِّظام الصُّهيوني في مواجهة البرنامج النَّووي الإيراني بعمل عسكري، تنحو إدارة الرَّئيس الأمريكي، "جو بايدن"، إلى المنحى الدُّبلوماسي والحلول السِّياسية.

بالتَّالي فإنَّ هذا التَّحالف في حدِّه الأدنى يتَّفق على ما يلي:

انخراط الدُّول الأعضاء في علاقات عسكرية وأمنية وشراكة اقتصادية.

مواجهة المدَّ الإسلامي السُّنِّي الذي شارك الجميع خلال العقد الماضي في مواجهته عبر "الثَّورة المضادَّة".

وعليه ستكون إسرائيل وإيران هما المستفيدان فعليًّا مِن هذا التَّحالف، كلٌّ مِن موقعه؛ فإيران اليوم تعدُّ حاضنة للحركات الرَّافضة لهذا الانخراط التَّام في العلاقات التَّبعية للكيان الصُّهيوني والمنظومة الغربية، وإسرائيل اليوم تعدُّ ملجأ للأنظمة الرَّاغبة في بقائها ومواجهة التَّهديد الإيراني.

حرب المصطلحات
وأثرها في تحريف الدين وتزييف الوعي

د. عبد الله الحميري

مما لا يختلف عليه اثنان: أن تغيير المصطلحات وتحريف المفاهيم الشرعية هو أحد وسائل الحرب الفتاكة التي شنَّها ويشنُّها أعداءُ الإسلام قديمًا وحديثًا، وهو أعظمها خطرًا، وأسرعها انحرافًا في تغيير الوجهة، وتزييف الوعي، وطمس معالم الشريعة والهُويَّة!!

ولأجل ذلك سبق التحذير منه مبكرًا، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤].

فـ(راعنا) وإن كان بمعنى (انظرنا)، إلا أن الأول محتمل لما كان اليهود يقصدونه من معنى الرعونة والتنقُّص، فنهي المسلم أن يشابههم في شيءٍ من أحوالهم قولًا أو فعلًا.

وكان مشركو العرب يستحلُّون الميتة

والتزام التعبير بالمصطلح الشرعي هو منهج أهل الحق والاتباع عبر القرون، فلا يعبرون عن الحق إلا بلفظه وقالبه الشرعي

ويسمونها: ذبيحة الله! ويقولون للمسلمين: كيف تأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون ذبيحة الله؟

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

فبيَّن لهم أنَّ تغيير هذه المسميات من وحي الشياطين، وأن الحرام لا يتغيَّر حكمه بتغير اسمه أبدًا.

وأمَّا اليهود، فهم موصوفون بتحريف الكلم عن مواضعه لغرض لبس الحق بالباطل، وإضلال الناس عنه؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٩].

فقد أمروا أن يقولوا حطة، فقالوا : «حبة في حنطة؛ أو حنطة في شنة»!!

وكانوا يقولون : «السام عليك يا محمد!» بدل «السلام عليكم»؛ ويعنون به الموت!

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

كما حرفوا التوراة لفظًا ومعنًى، وألبسوا الحق بالباطل، فغيَّروا وبدَّلوا.

والمصطلح الشرعي لا يجوز استبدال غيره به حتى لو اتفق معه في المعنى؛ لأن المصطلح الشرعي قانون لازم، وحكم جازم، وهو سالم من أي إيراد أو لوازم باطلة، بل هو صحيح في لفظه ومعناه، ولا يكون لازم الحق إلا حقًّا.

والتزام التعبير بالمصطلح الشرعي هو منهج أهل الحق والاتباع عبر القرون، فلا يعبرون عن الحق إلا بلفظه وقالبه الشرعي، وأما التعبير بالألفاظ المجملة والموهمة، فإنه مسلك من تنكَّب السبيل، وحاد عن الدليل من أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة، مُضاهاة لسنن أهل الكتاب من قبلهم، كما أخبر بذلك مَن لا ينطق عن الهوى ﷺ بقوله: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ؟**». رواه البخاري (٣٤٥٦).

فالانحراف عن المصطلحات الشرعية واستبدال مصطلحات أهل المناهج الكلامية وغيرهم بها، منهج مغاير لأهل الاتباع، وبسببه وقع اللبس والاضطراب والعدول عن الحق والضلال المبين في سائر أبواب الاعتقاد وغيرها، وهو سبب ضلال بني آدم كما قرَّره أهل العلم.

ومما حرَّفوه وغيروه من المصطلحات الشرعية ما يأتي:

لفظ التنزيه والتأويل: إذ ذهب المعطلة من الجهمية وأتباعهم إلى تعطيل الباري سبحانه من جميع الكمالات التي دلَّت عليها أسماؤه وصفاته،

مما سمى ووصف به نفسه، وسموا ذلك التعطيل تنزيهًا ليقبل منهم!!

وذهب المؤولــون ممَّن جاء بعدهم من أهل الطــرق الكلاميــة في معظم ما نفــوه من صفات البــاري جل وعلا إلى صرف اللفــظ عن ظاهره، وزعمــوا أن حقيقته غير مرادة لله تعالى، وســموا ذلك التعطيل تأويلاً ليقبل منهم كذلك!!

بينما ســمى الله ذلك كله في كتابه: (إلحادًا في أسمائه)!

فقال تعــالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

كما ذهــب القدرية النفــاة إلى تعطيل قدرة اللــه على خَلْق أفعال عباده، وقالوا: إن العباد هم الخالقــون حقيقة لأفعالهم، وســموا ذلك عدلاً ليقبل منهــم؛ كما هو أحد أصول مذهب المعتزلة الخمسة!!

ومن تغيــير المصطلحات: إبطــال الحقائق الشرعية ببعض الشــذوذات اللغوية أو بدونها في الأغلب؛ كتاويلات الباطنية ومَن تبعهم من الرافضة والحلولية وغيرهم، حيث لا تتَّصل تلك التأويلات لا بمدلولات الألفاظ، ولا بالســياق القرآني، ولا بمفهوم اللغة؛ وإنما بباطنية عقيمة التأويل، بل هي من ضروب الهذيان وهزال الأباطيل!!

الانحراف عن المصطلحات الشرعية واستبدال مصطلحات أهل المناهج الكلامية وغيرهم بها، منهج مغاير لأهل الاتباع، وبسببه وقع اللبس والاضطراب والعدول عن الحق والضلال المبين في سائر أبواب الاعتقاد وغيرها، وهو سبب ضلال بني آدم كما قرَّره أهل العلم

إذ جعلوا كل ما جاء في كتاب الله تعالى من ألفاظ الــشرك والكفر التي لا تكــون إلا في حقِّه تعالى، جعلوها في حق المخلوقين!!

فالــشرك عندهم يعني: الشرك في ولاية عليٍّ؛ والكفر يعني الكفر بولاية عليٍّ!!

كما جعلوا كل ما جاء في عبادة الله وتوحيده، واجتنــاب الطاغــوت والكفر به، خاصًّــا بولاية الأئمة، والبراءة من أعدائهم!!

وزعمــوا أن كل الآيات الــواردة في الصلاة تعني: الأئمة والإمامة!!

وآيــات الله الكونيــة، ومخلوقاتــه، وآلاؤه، ليست عندهم إلا رموزًا للأئمة؛ ولا تعني أي شيءٍ آخر في الكون!!

وأما المحرمات الشرعية عندهم، فهي كذلك مســميات ورموز لمعــانٍ خفيةٍ لا يعرفها ســوى الخاصة منهم!!

❋ فالزنا مثــلاً: ليس هو إيلاج فرج في فرج محرم، وإنما المراد به إلقاء نطفة العلم الباطن في نفس من لم يسبق معه عقد العهد!

وأما الزنا المعهود، فلا حرمة فيه عندهم!!

❋ وأمــا الطهــور، فليس هــو الوضوء ولا الغسل المعروف، وإنما المراد به التبرِّي والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الإمام!!

❋ وزعموا أن الصيام ليس معناه الإمســاك عن المفطرات في وقت مخصوص، وإنما الصيام

هو الإمساك عن كشف سرِّهم لغيرهم!!

* أما الطواف بالبيت سبعًا، فقالوا: إنه الطواف بمحمد صلى الله عليه وسلم وعترته إلى تمام الأئمة السبعة!!

* وأما الصلوات الخمس، فهي رموز وأدلة على الأصول الأربعة عندهم (علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم)، وعلى الإمام الغائب! ولا تعني هذه الصلوات المعهودة عند المسلمين!!

ومن تغيير الباطنية لمصطلح المعجزات الثابتة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام زعمهم أن طوفان نوح يعني طوفان العلم الذي أغرق المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة!

وأن نار إبراهيم التي ألقي فيها تعني غضب النمرود، وليست نارًا حقيقةً!

وأن جن سليمان هم باطنية ذلك الزمان! والشياطين هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة!

إلى آخر هذياناتهم وهرطقاتهم الكفرية التي أبطلوا بها كل شرائع الإسلام، واستحلوا بها كل المحرمات، وغيَّروا بها كل المصطلحات والمفاهيم الشرعية، وخلاصة مذهبهم: الإباحية المطلقة، وهو دين الشيوعية الملحدة، والليبرالية المعاصرة،ومذهب كل عابث وزنديق؛ إذ كل من جاء بعدهم فإنما هو تلميذ لمدرستهم، وعالة عليهم، وتابع لهم.

بعد تقرير ما سبق بيانه عن حرب المصطلحات الشرعية، وسعي الأعداء لتغييرها وتحريفها عن حقيقتها ومسارها، يَحْسن الإشارة هنا إلى ما ذكره ربنا جل وعلا في حواره مع عدو الإنسانية الأول، وإمام التحريف وشيخ طريقته وحامل رايته، إبليس: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

وما كان هذا القسم من إبليس لربه إلا مجرد حَدْس وظن يتمنى حصوله وإن لم يكن يصدقه في نفسه، أو يتوقع أن يصدقه الناس فيه؛ ولكن حدسه وظنه هذا قد صدق في كثيرٍ من بني آدم، وتحققت فيهم أمنيته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

فقد أمرهم أن يغيروا خلق الله، فغيَّروا خلق الله في كل شيءٍ كما أمرهم، حتى مسخت فطرتهم فتحوَّل منهم الرجل امرأةً، والمرأة رجلًا!!

وأمرهم أن يغيروا أمر الله وشرعه، ففعلوا ما أمكنهم من تغيير وتحريف معانيه ومصطلحاته حتى سبقوا في ذلك شيخهم إبليس نفسه؛ وربما صار إبليس تلميذًا صغيرًا لبعض شياطين الإنس!!

عبَّر عن ذلك الخوارزمي قديماً بقوله:

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى
بي الحال حتى صار إبليس من جندي!
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده
دقائقَ كفرٍ ليس يدركها بعدي!!

وفي الحديث الصحيح: قال صلى الله عليه وسلم: «**ليشربنَّ ناسٌ من أمَّتي الخمرَ يُسمُّونها**

بغير اسمها، يُعزَفُ على رءوسهم بالمعازف، والمغنِّيات، يخسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الأرضَ، ويجعَلُ منهمُ القِرَدةَ والخَنازيرَ»[1].

وليس هذا التغيير محصورًا على الخمرة وحدها، وإنما هو مثال عام لانحراف المفاهيم العامة في كل شيءٍ يستحله الهوى، وتُمْليه الشهوات، ويتجه له سلوك المُبدِّلين والمحرفين من عبيد الشهوات والهوى!!

ومن أمثلة ذلك التغيير:

تسمية الالتزام بحدود ما أنزل الله تشددًا وانغلاقًا!

وترك الحكم بما أنزل الله، والتحاكم إليه ديمقراطية!

وتسمية التفلُّت من الأحكام الشرعية انفتاحًا!

ومسخ عرى الولاء والبراء مواطنة وتعايشًا!

والدعوة للنصرانية وغيرها من ملل الكفر والإلحاد تبشيرًا!

والكفر بالله والاستهزاء بدينه وأنبيائه حرية فكرية!

وتسمية الملحدين لا دينيين!

وتحريف الدين تجديدًا وتنويرًا!

والدعوة لإقامة حدود الله في الأرض عنفًا ووحشيةً!

وإلصاق كل وصف شنيع بالإسلام وتسميته إرهابًا!

وتسمية التعامل بالربا فائدة!

والزنا علاقة رومانسية وحرية جنسية!

وفاحشة قوم لوط مثليةً!

والخمر شرابًا روحيًّا!

والتبرج والانحلال الخلقي تقدمًا وتحضرًا!

وأخيرًا، السعي لجمع الملل والشرائع المحرفة، والأديان الوثنية تحت قبة ما يسمى بالدين الإبراهيمي باسم التسامح الديني!!

ومسلسل إنتاج ونسخ المصطلحات الجديدة لا حصر له، ولا حدود!

وكلها صور ولافتات أوحاها الشيطان لأوليائه، وأزَّهم عليها أزًّا، وحمَلهم عليها حملًا، ليصرف بها الخَلق عن الفطرة السويَّة، والشرعة المرضية، والصبغة الربانية!

والخلاصة من ذلك كله:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ...﴾ [النساء: ٨٩].

﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

ولأجل ذلك كله كان الحفاظ على المصطلحات الشرعية، وحمايتها من التغيير والتبديل، حفاظًا على جوهر هذا الدين وبيضته، وهو أمرٌ متحتم على الأمة بمجموعها وآحادها، لأنَّ تسويغ الباطل، واستحلال المحرم، وطمس معالم الحق إنما يبدأ من تغيير المصطلحات الشرعية، والعبث بمدلولاتها، والتقوُّل على الله بمحض الجهل والهوى.

وبالله تعالى التوفيق، ومنه السداد.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨٨)، وأحمد (٢٢٩٠٠) مختصرًا، ينظر: صحيح ابن ماجه للألباني (٤٠٢٠).

حوار مع فضيلة الدكتور محمد العبدة

أجرى الحوار الدكتور عبدالعزيز كامل

مرحبًا فضيلة الدكتور الشيخ محمد العبدة في هذا الحوار الذي نرجو أن يكون نافعًا وماتعًا لقرَّاء مجلة (بينات).

١- في البداية.. نريد من فضيلتكم إطلاع القرَّاء على أهم المحطات الفكرية التي مررتم بها، وأهم الشخصيات العلمية والدعوية التي تأثرتم بعطائها..

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

المحطة الفكرية الأولى كانت أثناء الدراسة الجامعية وما بعدها بقليل، وإن كانت البداية في المرحلة الثانوية، ففي هذه المرحلة وفي أواخر الخمسينات من القرن الماضي كان الصراع محتدمًا بين أصحاب الاتجاه الإسلامي من جهةٍ وبين أصحاب الاتجاهات القومية (حزب البعث) والاتجاه الشيوعي، وكان الصراع على سوريا محتدمًا بين القوى الغربية والشرقية، وكان الطلاب هم رأس حربة الأحزاب، فكانت المظاهرات الكثيرة تطالب بالوحدة مع مصر ورفض المشاريع الغربية، فهذا جانب من جوانب هذه الفترة، ومن حسن حظِّنا أن أكثر المدرسين كانوا على درجةٍ عاليةٍ من العلم في اختصاصهم، وكان منهم أصحاب توجه إسلامي؛ مثل: الشيخ سعيد طنطاوي (أخو الشيخ علي) والشيخ عبد الرحمن بن حسن حبنكة، وكنا نذهب مع بعض الزملاء لحضور دروس وخطب الأستاذ عصام العطار، وفي هذه الفترة كنت أقرأ الكتب الثقافية العامة، وخاصة الأدبية، ولكن كفكر إسلامي كانت المحطة الأولى في المرحلة الجامعية، ولم

يكن الأمر صعبًا أن يجمع الطالب بين الدراسة الجامعية، والاطلاع على الفكر الإسلامي.

ففي هذه المرحلة قرأت كل ما كتبه سيد قطب، وكل ما كتبه المودودي رحمهما الله، وبعض مؤلفات الشيخ أبي الحسن الندوي، ولا زلت أذكر الرسائل التربوية للدكتور عبد العزيز كامل، وكانت قوية ومفيدة رغم صغر حجمها، وكان من أساتذتنا في الجامعة العلَّامة الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا صاحب موسوعة (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) والشيخ معروف الدواليبي الذي درَّسنا مادة أصول الفقه، وقد دخل في غمار السياسة، وترأس الوزارة في سوريا لعدة مرات، ومن العلماء البارزين الشيخ مصطفى السباعي، وقد كان له الفضل في تأسيس كلية الشريعة في جامعة دمشق، وهو المراقب العام للإخوان المسلمين، حضرت له بعض المحاضرات ولقاءات عامة.

وفي أواخر السنوات الدراسية لازمت الشيخ محمد أمين المصري المدرِّس في كلية الشريعة في دروس التفسير، ورافقته في بعض الرحلات الدعوية، انتقل الشيخ بعدها للتدريس في جامعة أم القرى في مكة، ثم في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

وله تفسير متميز لسورة (الأنفال)، وجمعت محاضراته بعد وفاته رحمه الله في كتاب (المسؤولية)، وكتبت مقدمة عن حياته.

وفي هذه الفترة أيضًا اتجهت لقراءة كتب ابن تيمية وابن القيم، والبداية كانت عندما وجدت في واجهة إحدى المكتبات كتاب (العبودية)، ومن خلاله تعرفت على شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم.

المحطة الثانية:

بعد التخرُّج من الجامعة انتقلت للتدريس في المعاهد العلمية في المملكة العربية السعودية، وكانت هذه الهجرة للسعودية لكثير من الدعاة من سوريا.

كانت هذه المحطة غنية وثرية في أمور الدعوة، فقد التقيت هناك برجل الفطرة، كان كثير من الطلاب في المعهد العلمي من القرى المجاورة، فطرتهم سليمة، مُقْبلون على العلم، وكان الجو الديني هو السائد من آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تعرَّفت في هذه المدينة على قاضيها، وكان لنا لقاءات معه وحديث عن ابن تيمية ومدرسته، وقمت مع بعض الزملاء بزيارة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في منزله بمدينة عنيزة، ورأينا فيه نموذج العالم المتواضع السهل القريب.

وكذلك وفي زيارة للمدينة النبوية، حضرت درسًا للشيخ محمد الأمين الشنقيطي في المسجد النبوي، وكان في التفسير، وكل ما هو مذكور في تفسيره العظيم (أضواء البيان) هو من ذاكرته استشهادًا بالآيات والأحاديث ومتون النحو وأصول الفقه والمنطق والشعر، وأذكر أنه نقل رأيًا لابن حزم، ورد العلماء عليه، ثم قال: وكل هذا الرد لا يؤثر في بحر علمه المتلاطم، ذاكرة عجيبة رحمه الله، وقد زرته في منزله بصحبة ابن أخيه، وكان شيخنا الدكتور محمد أمين المصري يقول: «إذا كان هناك عالم فهو الشيخ الأمين الشنقيطي، أما أنا فطُوَيلب علم».

وهذا من تواضعه رحمه الله. بعد انتقالي

إلى المدينة النبوية للتدريس في المعهد العلمي في الجامعة الإسلامية، تعرفت على الشيخ عبد المحسن العباد نائب رئيس الجامعة، وعلى الشيخ عبد العزيز القارئ عميد كلية القرآن الكريم، وكان لنا مُدَارسات ولقاءات علمية معه وعلى الشيخ علي الحذيفي عميد كلية الدعوة، وتعرَّفت على الشيخ حماد الأنصاري العالم المحدِّث، وفي بداية السنة ألقيت محاضرة بعنوان: (آراء ابن تيمية في المجلد الثامن والعشرين من فتاويه).

ولم ألتقِ الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله؛ لأنه كان قد غادر رئاسة الجامعة الإسلامية إلى رئاسة هيئة كبار العلماء في الرياض.

وفي دمشق أثناء الإجازة الصيفية كنت أزور الشيخ الألباني، وحضرت له بعض الدروس.

أما المحطة الثالثة، فهي في إصدار مجلة (البيان) التي سنتكلم عنها جوابًا على سؤالكم الثاني. وأمَّا أهم الشخصيات العلمية والدعوية التي تأثرت بعطائها، واستفدت منها، والمقصود في العصر الحديث، منهم: الشيخ رشيد رضا في مجلته (المنار) وتفسيره (المنار) والشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء الجزائريين ونائبه الشيخ البشير الإبراهيمي، ولابن باديس لفتات في التفسير وفق إليها، وتشير إلى تعمُّقه في هذا الفن، ومن الشخصيات التي لها حضور قوي في الثقافة العربية الإسلامية الأديب الشيخ محمود محمد شاكر، مبكرًا قرأنا مقالاته الممتعة: (أباطيل وأسمار)، والتي جُمعت في كتاب بعدئذ، وكذلك كتابه (في الطريق إلى ثقافتنا)، وتحقيقاته الرائدة في بعض كتب التراث مع أخيه العالم المحدث الشيخ أحمد شاكر.

ومنهم الشيخ محمد عبدالله دراز في كتابه العظيم (دستور الأخلاق في القرآن)، ومنهم المفكر الجزائري مالك بن نبي، وقد كتبت عنه وعن مؤلفاته كتابًا بعنوان: (مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي).

وقد استفدت كثيرًا من تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي، ومن تحقيقاته التاريخية.

٢- كانت بداية تعرف المثقفين الإسلاميين على فضيلتكم من خلال رئاستكم لمجلة (البيان) التي تصدر عن المنتدى الإسلامي بلندن، فما تقويمكم لمسيرة مجلة (البيان) منذ صدورها، وحتى هذا اليوم، حيث تعرضت للمنع من الطباعة في كل من مصر والمملكة العربية السعودية؟

عندما صدرت مجلة (البيان) عن المنتدى الإسلامي في لندن عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م كانت ذكرى المجلات الكبرى في أذهاننا، ذكرى (المنار)، و(الفتح)، و(البصائر)، و(المسلمون)، هذه المجلات التي كانت موجودة في أوائل القرن العشرين الميلادي مجلات كان لها أثر ودور في حياة المسلمين الثقافية، وخاصة مجلة (المنار) لصاحبها الشيخ رشيد رضا.

وعندما صدرت مجلة (البيان) كانت مجلة (حضارة الإسلام) في دمشق قد توقفت، وكذلك مجلة (الأمة) في الدوحة، فجاءت مجلة (البيان) بوضوحها ومنهجها لتسدَّ ثغرة كبيرة في الثقافة الإسلامية، كان الهدف الأساسي هو أن تكون مجلة تمثل منهج أهل السنة في العلم والعمل،

في العقيدة والفكر والسياسة، واستطاعت أن تبرز هذا المنهج بكل قوة، وكان لها القبول خاصةً من جيل الشباب المتعلم المثقف، ومن طلبة العلم الشرعي.

واستطاعت أن تستقطب أقلامًا متميزة شاركوا معنا من البداية.

استمرت المجلة على هذا المنهج القويم رغم الضغوط التي مُورِست عليها، والعوائق التي وقفت في وجهها، تغيرت شكلًا، ولكنها لم تتغير مضمونًا، ومن الطبيعي أن تتجدَّد الموضوعات، ويأتي كتَّاب جُدد خلال فترة ليست بالقصيرة من عمرها، ولكنها حافظت على المنهج، وهذا شيء يحق لها أن تفتخر به، ورغم أني لم أطلع على الأعداد الأخيرة، ولكن من خلال ما يذكر من أسماء كُتَّابها، والموضوعات المطروحة، أعلم أنها ثابتة في موقفها، والحمد لله.

٣- شهدت الساحة الإسلامية في المنطقة العربية ما أطلق عليه (الصحوة الإسلامية)، وقد كان لتلك الصحوة التي تزامنت مع بدايات القرن الهجري الخامس عشر تجليات مختلفة، إحداها حركية، كما في مصر والشام، وأخرى علمية، كما في بلاد الحرمين واليمن، فما تعليقكم على هذا الملحظ؟

مع تحفظي على عبارة (صحوة)؛ لأنها تدل على أن ما قبلها كان غفوة أو (نومة) مع أن الحقيقة أن ما قبلها كان قويًّا في جانب العلم والحديث القوي عن النهضة وشروطها، ويمثل هذه الفترة العلماء البارزون في كل من مصر والشام والعراق والمغرب العربي، ولا ننسى الشيخ ابن سعدي في نجد.

وربما لم يستفد كثيرًا من هذه الفترة السابقة، نعم، لا شكَّ أن الدعوة الإسلامية منذ بدايات القرن الخامس عشر الهجري اتَّسعت أفقيًّا وجماهيريًّا، وخاصةً في صفوف الشباب المتعلم الجامعي، وقد يكون هذا الظهور قويًّا في مصر والشام قبل المناطق الأخرى، ولكن ما سُمِّي مصطلحًا بـ (الصحوة)، لم تكن الأمور مفصولة حديًّا بين من يميل إلى العلم ونشره، وبين من ينهج الحراك الدعوي، ولكن يمكن أن نقول: إن طرفًا اهتم بالتأصيل العلمي أكثر من الطرف الآخر مع كونه دعويًّا حركيًّا.

مع وجود طرف ثالث هو فعلًا متجه بكليَّته إلى الكتب، وتحقيق التراث، ودروس العلم، وهذا أفاد في هذا الجانب.

٤- ما هو في رأيكم مدى التاثير المتبادل بين ظواهر النهوض الدعوي في نصف القرن الأخير في كل من باكستان ومصر والشام والجزيرة العربية وبلاد المغرب العربي، وهل يمكننا أن نقول: إنه كان بينها تكامل؟

هذا الكلام فيه قدر من الصحة، خاصةً إذا كان المقصود: عالم مُتمكِّن من فقه الكتاب والسنة، مُتمكِّن في الأصول والفروع ومقاصد الشريعة، وعنده القدرة على إنزال النص على واقع المسلمين، ويقدم حلولًا لنوازل جديدة.

وربما يكون الأقل منهم المفكرين الذين يجمعون بين الثقافة الإسلامية الأصيلة ومعرفة ما يدور في العالم مما يتعلق بالمسلمين وغير المسلمين، وله اطلاع على الأفكار التي تتجاذب الشعوب والدول والحضارات، وهذا يؤهله للحديث عن المستقبل. والسبب في قلة عدد

هذين الصِّنفين هو طريقة نظرتنا للأمور، فلا يشجع التخصص والتعمق في الفن الذي يحتاجه المسلمون، وسيطلب من هذا الذي يميل إلى التخصص الدقيق أن يكون خطيبًا وواعظًا وداعية، وإلا اعتبر متهربًا من مسؤولية الدعوة!! وحسب هذه النظرة للأمور فالمحدث يجب أن يكون فقيهًا، والفقيه يجب أن يكون سياسيًّا، ويجيب عن كل الأسئلة، وهكذا نبقى في العموميات.

وسبب آخر في عدم التعمق أحيانًا هو الميل إلى الأمر السهل، والبعد عن الأشياء المُتْعبة التي تحتاج إلى دراسات طويلة وتعب وجهد، وسهر الليالي.

وربما تميل بعض الجماعات إلى تربية الأفراد على الأشياء العامة؛ لأن الولوج إلى العلم والفكر سيؤدي -حسب نظرتهم- إلى كثرة الأسئلة والنقد والمناقشات، وهذا لا يعجبهم.

٥- أفرزت الحركات الإسلامية دعاة وحركيين أكثر مما خرجت علماء ومفكرين.. فما رأيكم في هذا القول؟

٦- كيف ترون تركيز الاستفادة من تاريخ الحركات الإصلاحية الكبرى في واقعنا؟ وهل هناك تجارب تخطت الأُطُر المحلية والإقليمية قديمًا إلى العالمية، بحيث يمكن الاستفادة منها؟

حتى نستفيد من تاريخ الحركات الإسلامية والجمعيات الإسلامية والتجمعات العلمية لا بد من دراستها دراسة حيادية منصفة ونقدية أيضًا، وليست دراسة بحثية أكاديمية، ومما لا شكَّ فيه أن مثل هذه الدراسة لها فوائد كثيرة، فعدا عن أنَّ لها إيجابيات مؤكدة، وأيضًا هناك قصور وأخطاء كبيرة يمكن أن يتجنَّبها الذي يريد الاستفادة، هناك تجارب فاشلة لبعض هذه الحركات في الشؤون السياسية، والعلاقة مع الأحزاب الموجودة في بلادهم، ومع الحكومات أيضًا، وكان من أسباب ذلك عدم وضوح المنهج، وبعض هذه الحركات لم يكن عندها موقف واضح من أهل البدع الكبيرة، ومن الفرق الباطنية؛ مثل: الرافضة، وهذا أوقعهم في أخطاء سياسية وعقدية، والحقيقة هي تجارب كثيرة وكبيرة من المهم دراستها.

(جمعية علماء الجزائر) كانت ناجحة، لم تستمر لأسباب وظروف ليس هنا مجال ذكرها، ومحاولة العلَّامة ولي الله دهلوي في الهند في بعث النهضة العلمية، تجربة تستحق الدراسة كان من آثارها محاولة حفيده إسماعيل بن عبد الغني وصاحبه أحمد عرفان الشهيد إقامة دولة إسلامية في شمال غرب الهند.

وإذا أردنا الرجوع إلى الوراء إلى التاريخ، فهناك أمثلة على نجاح حركات تأسَّس من ورائها دول، فالدعوة وتربية طلاب العلم التي قام بها الشيخ عبد الله ياسين في المغرب الأقصى في منتصف القرن الخامس الهجري كانت ناجحة، وكان من آثارها قيام دولة المرابطين، والتي ظهر منها القائد يوسف بن تاشفين بطل معركة الزلاقة في الأندلس، وقد كتبت عن هذه التجربة مقالة بعنوان: (العلماء وتأسيس الدول).

٧- كانت لجمعية العلماء التي أسَّسها الشيخ ابن باديس آثار طيبة على المستوى القطري لبلاد المغرب العربي، فلماذا لم تعمم تلك التجربة وقتها في بلاد أخرى؟ ولماذا غاب حضورها أو بعد ذلك؟

كان لجمعية العلماء الجزائريين الأثر

المبـارك الطيب على الأمة الجزائرية خاصةً، ولو قلنـا: إن هذه الجمعية كان لهـا النصيب الأكبر في إنقـاذ الجزائر مـن الفرنسـة والتغريب، لَمَا تعدينـا الحقيقة، كما كان لهـا الأثر الواضح في تحريـر الجزائر من الاسـتعمار الفرنسي، ولكم الحق أن تسـألوا: إذا كانت هـذه الجمعية بهذا القـدر والأهمية، فلـماذا لم تعمم؟ ولماذا غاب حضورها؟ أعتقد أن هناك عدة أسباب:

أولًا: هنـاك ضعـف في العلاقـات الثقافية العلمية بين أهل المـشرق العربي وأهل المغرب هكذا كان -وقد تحسـن في السـنوات الأخيرة- وهو شيء قديم، فالمشـارقة يعتبرون أنفسـهم أعلى كعبًا في العلم، وقد شـكا ابن حزم من هذه المقولـة، ورد عليهـا، وذكر أمثلـةً لكبار علماء الأندلس في الحديث والفقه والتفسير والتاريخ.

ثانيًـا: ظهرت هـذه الجمعية عـام ١٩٣١م وقبلها بقليل عام ١٩٢٨م ظهرت حركة الإخوان المسلمين في مصر، ومصر قلب العالم العربي، فكان لهذه الحركة الانتشـار في بعـض البلدان العربية، ثم توسـعت أكثر مـن ذلك بعد فترة من تأسيسها، خاصة وأنها تنظيم حزبي، وهذا شيء يعجب الشباب، بينما جمعية علماء الجزائر هي جمعية عُلمائية، اسـتقطبت العلماء ليكونوا هم قـادة العمل الاجتماعي والسـياسي، ثم كان لها الأثر في صفوف الشـعب عامة، وليسـت حركة نخبوية مثل الإخوان.

والحقيقـة كان هدف الجمعيـة قيادة علمية يلتفُّ حولها الشعب، وهكذا تكون عندها القدرة على التغيير.

ثالثًا: انشـغال الجمعية بمحاربة فرنسـا من خلال إنشـاء المدارس العربية الإسـلامية، ومن خلال الدروس في المسـاجد وإنشـاء الصحف التي تساعد على توعية الشعب الجزائري بعد وفاة رئيس الجمعية الشـيخ ابن باديس خلفه الشـيخ البشـير الإبراهيمي، وفي أوائل الخمسينات من القرن الماضي الميلادي زار بعض البلاد العربية، وزار باكسـتان، ولكنـه لم يفكـر في فتح فروع للجمعية في هذه البلاد.

٩- تميـزت الصحـوة الإسـلامية في بـلاد الحرمين عن غيرها بالتأصيـل العلمي، المرتبط بأصول اهل السنة والجماعة، فما تقديركم لمدى نجاعة طرحها في السـاحات الإسلامية المحيطة بها؟

نعم، كما ذكرتـم تميزت بالتأصيل العلمي، واتباع منهج أهل السـنة والجماعـة في العقيدة، وتنـاول العلـوم الإسـلامية، مـع التجديـد في وسـائل الدعوة، والبعد عن الغلـو أو التقصير، وكان السـير على هذا المنهج بنتائجـه الفكرية والدعوية والسياسية متميزًا، بل أستطيع أن أقول: إن هـذه الصحوة -كما تسـمونها- فيها شيء من التجديـد لمزجها بين التأصيـل العلمي ومعرفة واقع المسلمين، وكان لها مواقف واضحة وقوية من الأزمات والنوازل التي ألَمَّت بالمسـلمين في العقود الأخيرة.

وقد استفادت الساحة الإسلامية من إنتاجها العلمـي والفكري، وهذا لا يعنـي طبعًا كمالها، بـل بالتأكيد هنـاك نقص في بعـض الجوانب، والمراجعـات هـي التي يمكـن أن تسـدَّ هذه الثغرات. ومع بُعْدهـا عن الغلو -كما ذكرتم- لم تَسـلم من الاتهام بالتطـرف، والحقيقة أن كلمة

(تطرف) أصبحت تُقَال للمسلم الملتزم بثوابت الدين، وعقيدة الولاء والبراء، والملتزم بصلاته وصيامه، واتباع الحلال، والبعد عن الحرام.

وكثر الحديث في هذه السنوات عن شيء سمَّوه: (الاعتدال) و(الوسطية)، والمقصود: التنازل عن بعض الثوابت، والتراخي في القيام بالسنن والواجبات، وعندئذٍ لا يقال: متطرف، بل (معتدل).

ولا شك أن الضغوط الأجنبية الثقافية على المسلمين وعلى بعض الحكومات، واتهام المسلمين بالتطرف هي من أسباب استجابة بعض المسلمين الضعفاء لهذه الضغوط، وأصبحوا يحرفون الكلم عن مواضعه إرضاءً لهذه الحملات، وهذه الغارات على الثقافة الإسلامية.

١٠- من مميزات ذلك الطرح العلمي الدعوي في بلاد الحرمين: اتصافه بالبعد عن الغلو أو التفريط، وجنوحه للولاء الحر لكل العاملين للدين، ومع ذلك لم يَسلم هذا الطرح الوسطي من الاتهام بالتطرف والانحراف، فما تفسير ذلك؟

الروابط العلمية:

لا شك أن تجمع العلماء والدعاة في روابط أو مؤسسات علمية دعوية هو عمل صحيح، بل هو واجب لا بد منه، فالعلماء هم قادة الأمة على التحقيق إذا قاموا بواجبهم المناط بهم، والناس إذا رأوا العلماء وقد اجتمعوا وتعاقدوا وتفاهموا فهذا مما ينعش الآمال.

وما يقع الآن من انتشار هذه الروابط في معظم البلاد العربية والإسلامية هو شيء إيجابي في العمل الإسلامي، والدعوة إلى الله سبحانه، ومن أسباب نجاحها أن تكون النية خالصةً لوجه الله، وليست لرئاسة أو منفعة دنيوية، وأن يكون الانسجام بين أعضائها، ولا يكون الهم هو التجميع والكثرة مع اختلاف المشارب والأهداف.

وإذا كانت الرابطة منسجمة مع نفسها تصدر عن شورى ورأي موحد، فهذا مما يساعد على التقارب والتفاهم مع غيرها.

إن التقارب والتشاور والتفاهم هو الأسهل، وهو الأقرب، وربما يؤدي إلى التوحد بين الروابط المتقاربة في المناهج، ولكن لا نتسرع في التوحد تحت ضغط العواطف والشعارات التي تَأْسرنا.

١١- ما تفسيركم -فضيلة الدكتور- لحقيقة أن كل أو جُل الجماعات والتيارات الإسلامية المنتمية لأهل السنة والجماعة، لم يعرف لها مشروع حقيقي بالمعنى الشامل الجامع للأبعاد المتنوعة المنهجية والاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والتربوية والإعلامية، بالرغم من أنها تُواجَه بالعديد من المشروعات المُعَادية للسنة وأهلها؟

١٢- ما توقعاتكم أو بالأحرى آمالكم فيما يجب أن يتحقق للأمة على يد الهيئات والمنظمات والروابط العلمية والدعوية التي كادت تشمل معظم بلاد العرب والمسلمين؟ وهل من سبيل لتوحيد أو تقريب مواقفها من القضايا الكبرى في ميثاق مكتوب؟

١٣- ما توقعاتكم في تداعيات الحرب الأخيرة في أوكرانيا على المستويات العالمية والإقليمية والمحلية، وبخاصة في كل من سوريا وإيران وفلسطين؟

البيان الختامي لمؤتمر:

الأمة بين الاتباع والاجتماع

المنعقد في الفترة من ٤ ذي القعدة - ٦ ذي القعدة ١٤٤٣ هـ ، يوافقه ٣ يونيو - ٥ يونيو ٢٠٢٢م

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على إمام النبيين وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

فلقد انعقد مؤتمر رابطة علماء المسلمين بعنوان: (الأمَّة بين الاتباع والاجتماع)، بمشاركة واسعة من مشايخ ودعاة من مختلف الأقطار والتخصصات والتوجهات الإسلامية السُّنِيَّة، وقد جرت جلساته عبر ثلاثة أيام متتابعة، تداول فيها المشاركون الكلمات والبحوث، واستمعوا إلى النقاشات والأسئلة حول محاور المؤتمر الثلاثة، وانتهوا إلى جملة من النتائج والتوصيات المهمة، وذلك على النحو التالي:

أولًا: محور الأمَّة الإسلامية:

١- أكد المؤتمرون على واحديَّة الأمَّة ووحدتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فالمسلمون عَربًا وَعجَمًا هُويتهم تنبع من عقيدة التوحيد والوَحدانيَّة لربِّ البريَّة، كما تنبع وحدة كتابهم وشرائعهم وشعائرهم كافة.

٢- الأمَّة الإسلامية يجمعها ولاء واحد على الإسلام، فكلُّ مَن شَهِدَ لله تعالى بالوَحدانيَّة ولنبيِّه ﷺ بالرسالة، وصلَّى صلاتنا، واستقبل قِبلتنا، وإن عصى أو ابتدع فإنَّه من أهل القِبلة.

وطوائف أهل القِبلة تَجِبُ موالاتهم بحسب ما عندهم من إيمان وطاعة، فتُعصم دماؤهم،

وتُرعى حرماتُهم، ويُؤمرون بالمعروف ويُنهون عن المنكر.

٣- لا ولاء على حزبيات أو قوميات، ولا تعصُّب لمصالح طائفية، ومن أمانة نصح الأُمَّة: السعي في اجتماع كلمتها وتحقيق أُلفَتها، والنهي عن فرقتها، فالاجتماع على ما اتفق أهل السنة عليه، والتعاذر والتغافر فيما اختلفوا فيه.

والروابط النَسَبية، والإنسانية، والوطنية مرعية في حدودها التي لا تُحلُّ حرامًا ولا تُحرِّمُ حلالًا، ولا تَتقدَّم على الرابطة الإسلامية.

٤- برغم كلِّ التحديَّات التي تواجه الأُمَّة اليوم داخليًّا وخارجيًّا؛ فإنَّها لا تتخلَّى عن جَعْلِ التوحيدِ رسالتَها، والبلاغِ وظيفتَها، والولاءِ للمؤمنين لُحمتَها، تلتزم بواجب العبوديَّة اتباعًا، وتقومُ بواجب عِمارة الأرض إبداعًا، وتدعو إلى التجديد والاجتهاد في الدِّين من أهله وفي محلِّه.

٥- يخاطب المؤتمرون العالم الإسلامي حُكَّامًا ومَحكومين بوجوب إحياء مفهوم الأمة الإسلامية، والتخفُّف من كلِّ المعوقات التي تمنع اجتماعها واعتصامها بكتاب ربِّها وسنة نبيِّها ﷺ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومتى كانت الوحدة الإسلامية معجوزًا عنها؛ فإنَّ الواجب اتخاذ الأسباب المقدورة كافة، والميسور منها لا يسقط بالمعسور.

ثانيًا: محور الاتباع:

١- الاتباع كما يُطلب أن يكون للنَّبيِّ المُرسَل ﷺ؛ فهو أيضًا للكتاب المنزَّل، وهو للرعيل الأوَّل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

٢- الاتباع الصادق كما هو سبيل لإقامة الأمر؛ فهو طريق قاصد لتحقيق الخير وتحصيل الأجر، والأمن من الفتنة والوزر، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ومخالفة منهج الاتباع هو سبب الخذلان وسُلَّم الحرمان، لذا فإنَّ لُزومَ الاتباع في طريق الدَّعوات أَمرٌ واجبٌ وحَتمٌ لَازمٌ.

٣- الاتباع سبيل التمكين، وأخطر ما يهدد الساعين لإقامة الدين وحصول التمكين الانحرافُ عن منهج الاتباع، والناكصون عن الاتباع أَهلُ هوىً وتعصبٍ، وغلوٍّ وجدالٍ،

يُجادِلون في الحقِّ بعد ما تبيَّن.

فالاتباع في شأن الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمعات واجب لاحب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤- الاتباع كما يجب في المسائل العلميَّة والخبريَّة اعتقادًا، فإنَّه يجب كذلك في المسائل العمليَّة فِقهًا، ووجوبُه ألزم في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

وطاعة الحُكَّام والأئمة واجبةٌ ما أقاموا كتاب الله في الأُمَّة، والشورى والمناصحة شريعة مَاضية وشعيرة مَرضيَّة.

وكلُّ ما أُحدِث من الأقوال والأفعال ومناهج الحُكم على خلاف الشريعة المنزلة فهو ردٌّ، لا حُرمةَ له ولا أثرَ يترتَّب عليه إلا ما دعت إليه الضرورة.

٥- كما أن الاتباع واجبٌ شرعيٌّ وضرورةٌ علميَّةٌ، فكذلك الاجتماع مطلبٌ شرعيٌّ وضرورةٌ عمليَّةٌ، فينبغي السعي إلى الاجتماع على منهج الاتباع، مع الموازنة بين الجانبين حال السَّعَةِ والاختيارِ، وحالَ التدافعِ والاقتهارِ، واختيار الأرجح نظرًا لمصلحة المسلمين، وتحقيقًا لمقصد إعزاز الدِّين.

ثالثًا: محور الاجتماع:

١- تحقيق الاجتماع والوحدة والائتلاف من أهمِّ مقاصد الدِّين وقواعده الكُليَّة.

وكما أن البدعة مقرونةٌ بالفرقة، فإنَّ السنَّة مقرونةٌ بالجماعة، وأعظم سبب للاجتماع هو جمع الدِّين علمًا وعَملاً، ونتيجته العزُّ والتمكينُ في الدُّنيا، والفوز والفلاح في الآخرة.

وأعظمُ أسباب الهَلَكَة التفرُّق والاختلافُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٢- ليس من مقصود الوحدة والائتلاف ذوبان أو انحلال فئة لحساب أخرى أو طائفة في غيرها، وإنَّما المطلوب تحرير أصول أهل السنة والجماعة في كلِّ باب وتبنِّيها عِلميًّا وعَمليًّا، وذلك من شأنه أن يَجمعَ القلوبَ ويُوحِّدَ بين الجهود، ويُرقِّقَ الحواجزَ الموهومة بين فئات الأُمَّة، ويُصحِّح النَّظرة إلى التعدُّد في ساحة الأُمَّة الواحدة، فتُحيا الفرائض كافَّة، ويتجدَّد أمر الدِّين عامَّة.

٣- إنَّ تفعيل التيَّارِ العامِّ في الأُمَّة اجتماعًا على ثوابتِ الدِّينِ ومُحكمَات الشَّريعة، ومُهمَّات الشأن العامِّ ضرورةٌ شرعيَّةٌ وواقعيَّةٌ، يَتحقَّق من خلاله تنسيق الجهود في حفظ وإقامة الدِّين، وحراسة ثغوره من هجمات

أعدائه، وعليه فإنَّ السعي في إيجاد تيَّار عامٍّ في كلِّ قُطر من مُهمَّات الاجتماع على الذَّودِ عن حُرُمَات الإسلام، ومَعاقده التي قام عليها صَرحُه، وشُيِّدَت أركانُه.

٤- لقد عرفت الأُمَّة عبرَ تاريخها وواقعِها المعاصر نماذجَ مُشرِقةً من الاجتماع في الأزمات، والتكاتُف في المُهمَّات، وهي مدعوَّةٌ اليومَ في ظرفٍ بالغِ الدِّقَّة إلى تجديدِ فقه الاتِّباع ومُدارسته، كما هي مدعوَّةٌ إلى تجديد فِقه الاجتماع وممارسته، مع التغلُّبِ على العَقَبات ومُرَاغمة صُنوف العَدَاوات.

٥- واجبٌ على ولاة الأُمور من العلماء والحُكَّام أن يسعوا في حماية دِينِ الأُمَّة، وسدِّ ذرائع الفتن، واتِّخَاذِ تدابير مواجهة الأزمات والمحن، وعلى العلماء خاصَّة مسئوليةٌ في الصَّدعِ بالحَقِّ، وتحرير الفتاوى الراشدة، والاجتماع على الثوابت الشرعيَّة، والمنافحة عن أصول الإسلام وأحكامه القطعية.

وقد أوصى المؤتمرون بما يلي:

١- التَّدَاعي لإيجاد هيئات علميَّة قُطريَّة ودوليَّة لِحفظِ ثوابتِ العَقيدة ومُحكَماتِ الشريعة، يُمثَّل فيها العلماءُ من كلِّ اتجاه، وذلك للتصدِّي لفتنة تبديل الدِّين.

٢- التواصي والتذكير بوجوب الاتباع، وجعله أساسًا للاجتماع، وتنقيَة الصفِّ الإسلامي من مُخالفاتِ الاتِّباع في ظلِّ تجديدٍ واجتهادٍ يحفظ تماسُكَ الأُمَّة، ولا يخلُّ بثوابت دِينها.

٣- الدعوة لإنشاء معاهدَ علميَّةٍ، تُعنى بتدريس الثوابت ومعاقد الإسلام، في كلِّ مجال من مجالات الحياة؛ تأكيدًا عليها وحراسة لها.

٤- تشجيع مراكز البحوث والدراسات والأقسام الشرعية بالجامعات على العناية بتحرير مدونة في الخلاف الدعوي المعاصر، تعمل على تأكيد الثوابت وتحجيم الخلاف ومحاصرته في حدوده، من غير تهوين ولا تهويل.

٥- الدعوة إلى إيجاد لجنة للإفتاء في النوازل، تتكوَّن من مُختلفِ الرَّوابطِ والاتحادات والهيئاتِ الشرعيَّة والشخصيَّات العلميَّة المُستقلَّة، بما يحرر الفتيا من القيود التي جعلت كلمة العلماء بعيدةً عن أسماع الأُمَّة.

وأخيرًا فإنَّه مهما تكن التحدِّيَاتُ عظيمةً؛ فإنَّ المُبشراتِ أعظمُ، وأسبابَ التفاؤل أكثر وأكبر، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

رسالة إلى دُعاة التَّمَرُّد النِّسْوِيّ

د. عطية عدلان

مَن الذي قال: إنَّ المرأة كالرجل في كل شيء؟! من ذا الذي يملك الجرأة والقدرة على أن يثبت باستقراء الظواهر التاريخية والاجتماعية والأنثروبيولوجية والسيكولوجية والبيولوجية أنَّ المرأة كالرجل سواء بسواء؟! أروني فقرة في التاريخ الإنساني أقامت فيها المرأةُ حضارةً، أو أسست فيها دولةً، أو أنشأت فيها علمًا أو فنًّا من الفنون، فصار يحمل اسمها، ويرفع وَسْمها، أروني في التاريخ الإنسانيِّ كله امرأة واحدة اصطفاها الله للنبوة أو الرسالة، وأنزل عليها من السماء كتابًا تتلوه على الناس، أو شريعة تُقيمها في حياة الخلق!

كم نسبة حظوظ المرأة قياسًا على الرجل في رئاسة الدول وحكم الممالك وقيادة الجيوش وتأسيس المذاهب الكبرى التي كانت فاصلةً في حياة البشرية، وإنتاج النظريات العلمية والأدبية والتكنولوجية، كم نسبة المرأة فيمَن يعزى إليه التأثير في الواقع الإنسانيِّ بالإصلاح أو الإفساد، بالعدل أو الظلم، بالتنمية والرخاء أو بالإفقار والإفناء، بمنح الحرية أو بكبحها ولجمها، بتوجيه الخَلق للخير أو للشر؟! لا وجه للمقارنة بين حظوظ المرأة والرجل في كل ما يتعلق بالشأن الإنسانيِّ العام.

لا مَناص من التسليم بأنَّ الرجل متفوق على المرأة في كل ما يتعلق بالشأن الإنسانيِّ العام، إدارةً وتحملًا للمسئولية، وقدرةً على المواجهة، وجلَدًا أمام التحديات، وكياسةً في تصريف الأمور، وغير ذلك ممَّا فضَّل الله به الرجال

على النساء، ولا مناص قبل ذلك من التسليم -الذي لم يكن ليفتقر إلى كل هذه المقدمات- بالحقيقة القرآنية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٣٤]، فالرجال فضلوا على النساء بخصائص تُؤهِّلهم للقوامة العامَّة والخاصة، القوامة العامة التي تتحكم في حركة المجتمع السياسي، والقوامة الخاصة التي تتحكَّم في سير الأسرة، وبهما يكون للرجل ولاية على المرأة.

وهذا لا يعني أنَّ الرجل مُفضَّل على المرأة في الإنسانية، أو الكرامة، أو في الحقوق الفطرية، فالأصل أنَّ الرجل والمرأة مستويان في كل ما هو من صفات الإنسانية والكرامة الفطرية الأصلية؛ لذلك وجدنا الآيات التي تحدثت عن آدم وحواء في سياق التكليف والمسئولية، وما يدور حولهما من معانٍ مُلْصقةٍ بالذات الإنسانية لم تخاطب آدم وحده، وإنَّما خاطبتهما بضمير المثنى الذي يعطي كلًّا منهما حقَّه المتميز.

فالمرأة كالرجل في كلِّ ما يتعلق بالإنسان كإنسانٍ، من حرية وكرامة ومسئولية وتكليف وحساب وجزاء وحقوق وغير ذلك، لكن مع ذلك فجنس الرجال يتميز -في الجملة والعموم- عن جنس النساء بصفات لها تعلق بالوظيفة، لا بأصل الإنسانية، ولا بالكرامة، فالرجال -كما هو معلوم من التجربة الإنسانية كلها على اختلاف الأجناس البشرية- يتميَّزون بصفاتٍ تجعل لهم دون النساء القوامة؛ مثل: الحزم والعزم والجلد والصبر وتغليب العقل على العاطفة، وغير ذلك؛ لأجل ذلك لم نجد في السلف مَن خالف الإجماع على عدم صحة تولية المرأة الخلافة، وبهذا نفهم قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤]، فهذا نصٌّ ليس فيه غموض، ولا التباس، لكن ما شكل هذه القوامة؟ وما جوهرها؟ وكيف يقوم بها الرجال؟ ينقل الإمام الطبريُّ رحمه الله عن السلف من الصحابة والتابعين أقوالًا متقاربة؛ ليؤكد على أنَّ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، معناها: «الرجال أهل قيام على نسائهم، في تأديبهن، والأخذ على أيديهن فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم».

وبالطبع، لا يمكن أن يكون المقصود بالقوامة ذلك المعنى الخشن الاستبدادي الذي يفهمه البعض على وجه الخطأ والعجلة، فهي قوامةٌ نَعَمْ، وهي إدارة وسلطان أَجَلْ، ولكنَّها بروح التراحم والإشفاق والمسئولية؛ فلا مجال لإساءة الفهم، كما لا مجال لهذه المزايدات من دعاة النسوية، الذين لا يفتأون يستفزون المرأة لتتحول إلى مصدر إزعاج للأسرة والمجتمع باسم المساواة والتحرر.